حين اشتعلنا أمطرت

حين اشتعلنا أمطرت

رواية

حذيفة العرجي

حذيفة العرجي
حين اشتعلنا أمطرت
رواية

الطبعة الأولى: نوفمبر ٢٠١٧م – صفر ١٤٣٩هـ

الفسح: ١٣٩٠ / ١٤٣٩
ردمك: ٤-٧-٨٩٦-٩٠٨٩٦-٦٠٣-٩٧٨

دار ميلاد للنشر والتوزيع
6565 طريق الأمير محمد بن سعد بن عبدالعزيز
الرياض – المملكة العربية السعودية
الموقع الإلكتروني: www.DarMelad.com
تويتر: Dar_Melad
انستغرام: Dar_Melad

للتواصل مع المؤلف:
تويتر: al_arje
انستغرام: al_arje

سعر الكتاب:
35 ريال سعودي
9 دولار أمريكي

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار ميلاد، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الدار

الإهداء

إلى التي حفرت حرف اسمي على يدها بالسكين
ولمّا سألتها مُندهشاً غاضباً : لمَ فعلتِ هذا؟
أجابت: حتّى يستقرّ في نفسك أنني مجنونة
وأنني مُستعدة لأن أطعنَ قلبي بنفس السكين
إذا فكرت أن تتركني وتبتعد.
وبعدها بأيّام..
تركتني هيَ وابتعدت!

الفصل الأوّل

"الفراق هو الحب"

رحلنا إذنْ.. لا شيءَ باركَ عِشقنا
ولا نحنُ فضّلنا البقاءَ مُعلَّقا

ولا نحنُ قاتلنا لأجلِ وصالنا
ولا نحنُ ساعدنا هوانا ليُشرقا

حذيفة/ ديوان مُضاف إليك

كالغنيّ الذي يملكُ أصدقاءً بعدد شعر رأسه، عندَ أولِ لسعةِ فقر يكتشفُ أنّهُ أصلعْ!، هذهِ كانت إجابتهُ لباسم صحفي مجلة "أصدقاء الشعر" عندما سألهُ: كيفَ كنتَ في الحُب؟

يُتابع: إذا أردتَ أن تعرفَ خلاصةَ ما عاشهُ إنسانٌ فانظر إلى آخر كلماته في الدنيا، هذا المثلُ التايلندي ينطبقُ علينا معاشرَ العشاقِ أيضاً، فأنتَ لن تعرفَ حقيقةَ ما جرى بينَ قيس وليلى مثلاً حتَّى تقرأ آخر ما كتبَ قيسٌ في حياتهِ وآخر ما قالته ليلى، وعلى ذلك قِس.

شاكر عربي، بعُمقِ البحر لكنَّهُ لم يكن غامضاً، بل كان كالشمسِ أشعتُهُ تطولُ كلِّ بيت وتخترقُ كلّ نافذة، هو صاحب المقولة الشهيرة أيضاً: ليسَ غريباً أن يموتَ الرجلُ وسرُّهُ في قلبه، الغريب من يفضح سرهُ بيديه فيكتبهُ على شكل قصيدة، أليسَ أولى بنا أن نُسميها فضيحة بدل قصيدة؟.

أنتَ الآن في مدينة حمص، الساعة الخامسةُ والنصف صباحاً، لم ترتفع الشمسُ بعد، إنها بدايةُ التلوينِ في السماء، هذا الشارع يسمى في سجلات الحكومة شارع خالد بن الوليد ويُسميهِ أهل حمص "شارع الخراب!" مع أنهُ عامرٌ بالخُضرة لكنهُ الشاهدُ الأكبر على كلِّ زهرةِ فلٍّ ذُبحت بسكين بُعدْ وكلِّ نسمةِ صبحٍ شردها ليلُ فراق وكلّ نفحةِ حب وكل وعكةِ هجر وكل حلمٍ تهدمَ فوق عاشقينِ كانا يظنانِ أنهما يعمرانِ حقيقة، هو شارعٌ طويل ذو قسمين وعلى يمينهِ ويسارهِ أرصفةٌ عريضة

تنتهي ببساتين تلفها سحبٌ دخانيةٌ بيضاء، ستخرجُ الشمسُ من ورائها بعد قليل، سترى الكثير من كبار السن والشباب والصبايا أيضاً يمارسونَ رياضةَ المشي على هذهِ الأرصفة في هذا الوقت الباكر وستجدُ أيضاً بعض الكراسي المنتشرة على امتداد هذا الشارع الذي يبلغ طولهُ قرابة ٣ كلم يمنةً ويسرة يجلسُ على بعضها شبابٌ سهرَ الليلَ وجاء في هذا الوقت ليحضرَ ولادةَ السماء لشمسِ يومٍ جديد، بدايةُ هذا الشارع ملعبٌ كبير يحمل اسمَ الشارع أيضاً وهو مرتفعٌ بالنسبةِ لآخرهِ، إلى الأمام قليلاً ستجدُ بائع قهوةٍ مُرَّة ومشروباتٍ ساخنة يقف بسيارتهِ السوزوكي الصغيرة معلقاً ماكينة القهوة عليها، كبير في السن لا تبان على وجههِ آثارُ التعب مع أن من يعرفه يعرف تماماً أنهُ طاعنٌ في الحزن لعلَّ ابتسامتهُ ذات التجاعيد المُتفائلة تخفي ما يحملهُ قلبه، إنه يعرفُ رواد هذا الشارع فرداً فرداً ويعرفونه كذلك، إنهُ كما يقول شاكر عنه كبيرنا الذي علمنا الصبر، بمجرد أن تقطعَ هذا البائع مشياً فابدأ بالعد ثلاث كراسي على اليمين هذا هو كرسي شاكر عربي الذي بدأت منهُ قصةُ حبهِ وما انتهت عندهُ، بل انتهى هو!.

الصباح هو وقتُ الحُلمِ بالنسبةِ لهُ، فكما أنَّ السماوات تسمحُ للشمسِ كلَّ صباحٍ أن تصعدَها، كانتِ الشمسُ تسمحُ للأحلامِ أن تخترَقَ شباكَ غرفتهِ على شكلِ أشعةٍ ذهبية، كان ذلك اليوم يوم اللقاء الأول بعد التعارف، انتظرتهُ يومها من السادسة صباحاً حتّى التاسعة، وهو على بلكونهِ يُقاسمُ فنجانَ القهوةِ وأغصانَ الليمونِ والنارنج

إشراقةَ حُلُمٍ جديد، ينظرُ إلى هاتفه الصامتِ –كما أرادَ لهُ أن يكون– هاتفه الذي كلما أضاءت شاشتهُ بمكالمةٍ جديدة أغمضَ عينيه خوفاً من خطوةٍ تودي بقلبه، اعتذرَ لها بعد ست عشرة مكالمةٍ فائتة وأربع رسائل؛ أنَّ النومَ أخذهُ، والمنبه غدرَ بهِ، فلم يشعر بالوقت، لماذا انتظرتهُ في الشمسِ ثلاث ساعات كاملة!؟ هي نفسها لا تعلم، لعلَّ ما اعتبرته تجاهلاً في بادئَ الأمر زرعَ فيها حُبَّ تذوّقهِ على الفحمْ!

ضربَ كفَّاً بكف.. والآهُ تتدحرجُ من قلبهِ إلى فضاءٍ تظنُّ واهمةً أنها إن وصلت إليهِ سترتاح، أيُّ حبيبَةٍ تلكَ التي تبعثُ ألفَ وحشيٍّ كلَّ مساءٍ ليقتُلهُ غدراً برمحِ الأسئلة؟ إنَّهُ الآن كالذي جعلَ عمرهُ بين يدي أمهِ فتزوجَ من أجلها بابنة خالهِ أو خالتهِ وهو لا يحبها بل قد يكون يكرهها، كيف يتقبلُ هذا فكرةً كفكرةِ السعادة؟ أو كيف سَيُصدقُ أن هناك من يحتفلونَ بعيد زواجهم كلَّ عام!؟

كلَّما صرخَ أمل دنقل " لا تُصالح " صرخَ هو "إنها الحربْ" طالما شعر أنهُ "كليب" ولولا أن يتهمهُ النَاسُ بالجنونِ لأقسم أنَّ دنقل كان يتحدثُ بلسانهِ هو في قصيدتهِ "لا تُصالح"، لو كانَ يُفكرُ بالعودةِ ما هَجرَ أصلاً، كيف يعودُ إلى فتاةٍ اسمها "غرور" الاسمُ المُسيطرُ على شخصيَّتِها من كلِّ جانب، شخصيتها التي تُشبهُ كلَّ النساء فكلُّهنَّ مغروراتٍ، استنتاجهُ الأخير هذا جاءَ بعدَ ألفِ وعكةِ حب، إذن.. لا فرقَ عندهُ اليومَ ما بين هند ودعد ودعاء وياسمين ومنى وبينَ من أحَبها، كأنَّ النساء خلقنَ هي، وهي خلقت بكلِّ النساء، يشعر أحياناً أنَّ ما

يجعلهُ يفكر بهذهِ العقلية المُعقدة هو شعور الانتقام الذي ما أن يحطَّ في قلبهِ إلا ويطير، لأنه في المقابل مؤمنٌ جداً بالنظرية التي تقول: مهما آلت إليهِ أمور الحب فإنك إن بدأتَهُ صادقاً لن يجدَ الانتقامُ ثغرةً إلى قلبكَ بعدَ الفراقْ.

قال لهُ وجعهُ وهو يحاورهُ: إنَّ في كل رجل ألف أنثى وأنثى، أليست العاطفة أنثى؟ والدمعة واللهفةُ والآهُ والذكرى؟، وكلُّهُنَّ اجتمعنَ على الرجل الوحيد الذي يُدعى قلب؟، أمسكَ ورقتهُ بعد أيامٍ قضاها بعيداً عن الشعر وكتب:

واحسرتاهُ على ما ضاعَ من عُمُري
وما تهشَّمَ من إطلالةِ القمرِ!

حاولَ أن ينفضَ ما تبقى من رمادها على الورق فأبى عليهِ قلبه، هذا القلبُ الذي ألفَ الدمعَ فصارَ يرى في الابتسامةِ خرابا!

إنها السادسةُ صباحاً، هذا هو الصباحُ السابعُ والتسعونَ بعدَ الصمت، السابعُ والتسعونَ الذي تدُّقُ بهِ السادسةُ صباحاً دون أن تسمعَ صوتهُ لتبدأ بهِ يومها كما كانت تزعم، ينظرُ شاكر في فنجانهِ ليرى وجههُ أسوداً كالبُنّ مُتعرجاً كالأيام، تغير وجههُ كثيراً في الفترةِ الأخيرة، الوجهُ أوَّلُ ما يشيخُ بعدَ الفراق.

رنَّ هاتفهُ فجأة، رقمٌ غريب، غابَ لثوانٍ عن الواقع، أتكون هي؟ ماذا تُريدُ منّي بعد الذي جرى؟ لالا ليستَ هي، ماهذا الوهم الذي يسيطر عليّ، أأرد؟ لا لن أرد، لن أرد، غافلهُ ابهامهُ بلمحةِ شوقٍ وفتحَ الخط رغماً عنه وعن قلبه!

فيروزُ تُغني:

إذا رجعتْ بجنْ
وان تركتك بشقى
لا قدرانة فِلْ
ولا قدرانةِ إبقى..

صرخ بصوتٍ عالٍ أكرهكِ أكرهكِ أكرهكِ

أجابهُ أبو غالب بالعامية المصرية ضاحكاً: ومالو؟، دنا بموت فيك ياحبيبي.!!

أغلق الخطّ ورفعَ رأسهُ عائداً بهِ إلى الجدارِ مُغمضاً عينَاه يفكرُ فيما يؤمنُ أنَّهُ من سابعِ المُستحيلات أن يتحقق، لقد تنهَّدَ بصوتٍ أربكَ اليَاسمين من حوله ففاحَ بالآهاتِ مثله، إنَّما لا تستطيعُ تحقيقَهُ في الواقع تُدركُ شيئاً منهُ بالخيال، ما المانع في أن تضحكَ على نفسك قليلاً؟ استنتاجهُ هذا هو الذي يرمم بناءَ الأمل الآيلِ إلى الإنهيار في قلبه، ماذا هيَ فاعلةٌ الآن؟ سيجيبهُ عن سؤالهِ هذا خيالهُ في أحسنِ الأحوال

راح يقرأُ رسائلها في جواله هارباً من شبح هذا السؤال، قالت لهُ في إحداهنّ ذاتَ مُشكلة: إنك وإن ملكتَ ألف ابتسامةٍ لفتاةٍ أخرى لن تُنسيكَ يوم نظرتَ لي وابتسمتُ لك مجاملةً.

قاتلَها الحب!، هي التي نظرت وأنا الذي ابتسمَ مُجاملةً.

وقالت لهُ في أخرى: القربُ عذابٌ تماماً كالبُعد الفرقُ بينَهُما أن القربَ خالٍ من أدنى لحظةِ أمان بينما البُعدُ يمنحكَ الأمان فلن تخاف من الهجرِ يوماً، هل كانت تُمهد لهذهِ الأيام؟

لم يعترف لها يوماً أنَّهُ كلما اشتاقَ إليها هرَعَ كالمذعورِ إلى رسائلها، على عكسها تماماً كانت تخبرهُ أنها لا تستطيعُ النومَ إلا أن تتفقدَ حروفَهُ حرفاً حرفاً، كانت تُخبرهُ بما تشي لها رسائله وبما تقرأ في الكتب، قالت لهُ مرةً: وأنا أقرأُ رسائل الحب بينَ جبران خليل جبران ومَي زيادة كنت أمشي على الورق كنتُ أتنفسُ النقاءَ من الحروف والوفاء من النقط؛ أيعقلُ أن يستمرا لعشرينَ عاماً بدونِ لقاء، أهذا ما يُسمى الإصرار؟ لا أنكرُ أنّ هذه الرسائل جعلتني أخافُ منكَ أكثر فهي تُشبهُ رسائلكَ لي من حيثُ لا أدري وتدري!، جعلتني أخافُ منكَ لأنني لم أرَ فيكَ جبرانْ ولن أكونَ يوماً مَي!.

أراد أن يُخبرها أنها مُحقة فسكت ولم يجب على رسالتها تلك، بين الرسائل كذلك وقعت على عينه رسالةٌ قديمة كان أرسلها لهُ أمير في بدايةِ الهاوية ينصحه ويحذره قال له فيها: إن أهمَّ خطة تستعملها الأنثى للسيطرة على حبيبها هي المقارنة المشبّعة بالمبالغة، في الجمال مثلاً ستحكي لك

عن غيرةِ صديقاتها منها وعن ألف عريس في الساعة يتقدم لها أو يزيدون!، احذر فلن يكون الحديث مرة لا فالنساء يؤمنَّ أنّ تكرار الحديث عن فكرة ما ولو كانت وهماً يجعلها واقعاً في قلب من يستمع، في الطبخ هي الأفضل وكل صديقاتها يشتهينَ طبخها وفي صناعة الحلوى كذلك ، ستقول لك: أكلنا عند فلانة حلوى ما أكلنا أسوأ من طعمها قط حتى أن البنات قلنَ لها على سبيل المزاح حتى لا تزعل "إياك أن تفكري بصناعة الحلوى يوماً لزوجك حتى لا يطلقكِ" ستدخل بعدها في المقارنة فوراً ستقول لك"، كل البنات يعشقن الكاتو من يدي، فلانة تقول لي: أدفع عمري على أن أستطيع صناعة حلوى مثل حلواكِ، رحِّب أنتَ بهذهِ المبالغات وافتح لها قلبك وأوهمها أنك مُصدق، ولكن كن حذراً فأنت لو استسلمت لمقارناتها اليومية بعد فترة ليست ببعيدة سيترسخ في قلبك دون أن تشعر أن ليس على وجه الأرض أنيقة غيرها ولا طاهية طعام تشبهها وأن الكعب لا يلق إلا بها وأن شعرها تتمناه كل نساء الأرض حتى أنها قصته خوفاً من العين، وأنها هي مصدر المرح والسعادة لصديقاتها فهن لا يذهبن مكاناً إلا ويجب أن تكون هي موجودة وإلا صار جحيماً، وأنها الوحيدة في الأرض من بين النساء ليس في جسمها شعرة هكذا فضل من الله، أما الأخريات فيزلن الشعر بالليزر، وأن كل صديقات أمها وأقرباء العائلة أرادوها لأولادهم واختارتك أنت، وأنها الأنثى الوحيدة التي لا تتحدث عنك في ظهرك وكلهنَّ يتحدثن عن أزواجهن ومن يحبن، وأنَّ أمَّ

صديقتها قالت لابنتها تكحلي كفلانة "أي حبيبتك" وإلا فلا تتكحلي وأن وأن وأن، صدقني حتى إذا تزوجت منك وحضرت حفل زفافٍ ما، وكان لها منك أكثر من ولد فإنها ستخبرك عن نساءٍ رأينها في حفل الزفاف وطلبلنها للزواج وأنها خجلت منهنَ وأخبرتهن أنها متزوجة ولها أبناء فذهلنَ ولم يصدقنَ وظننَ أنها تتهرب منهن بقولها أنا متزوجة.

استمع يا صديقي لها بهدوء استمع وأسعدها ولو بالوهم، أسعدها فإن النساء يُحببنَ الكذب ولو ادعينَ غير ذلك، واعلم أن لكل أنثى مملكة من الجمال ليست لغيرها ولا تتفوق احداهن على أخرى إلا بصدق العاطفة، وأن الدنيا مليئة باللواتي يتنظرن نصف ابتسامةٍ منك بينما أنت تُخلص لها فقط، والدنيا يا صديقي، الدنيا لديها فائض كبير من المكلوماتِ حباً اللواتي ينتظرنَ فرصةً جديدة، فلذلك أرجوك إذا غدرتك يوماً وهجرت تذكر أن في المستقبل نساء كثيرات ينتظرنك، قطار الحب يفوتُ المرأة ولكنه ينتظر الرجل، لا تسألني كيف ذلك هذا ما يكون دائماً وليس له تفسير، ستكون هي مجرد ذكرى.. وما أصعب أن تصبح حياتك، كل حياتك مجرد ذكرى، لكنه كأس ستشربه كما شربه الجميع من قبلك وسيشربه الجميع بعدك.

•••••

سألهُ الصحفيُّ : والآن، وبعدَ هذا الفراق العلقم.. على فرضِ أنها تقرأ هذا اللقاءَ الصحفي وأنا أعلم أنها لا بد أن تقرأهُ ولو بعد حين، ماذا تقولُ لها؟.

وجدَ نفسهُ حائراً مُزعزعَ الأطراف كالذي اتصلت به إحداهنَّ وهو ناسٍ من فرط علاقاته من تكون، وهيَ تُحزرهُ "احزر مَن أنا؟ احزر"، وهو يسأل نفسهُ هل أرسلتها إحداهن لاستدراجي!؟

كرر الصحفيّ السؤال فتدارك الأمر وأجاب: كنتُ أعلمُ أنكَ ستسألني هذا السؤال ولكنكَ لا تعلم أن الشعرَ سبقَني وسبقكَ قبلَ أسابيعَ من سؤالكَ هذا وأجابَ عنه.

–جميل جميل شاعرنا إذاً هناكَ قصيدةٌ لم تُنشر بعد

–هو كذلك..

–في أقصى حالاتِ اللهفة لها يا شاعرنا، ستكونُ كوكبَ المجلةِ هذا الأسبوعَ بلا منازع

–أقول لها:

ما تفعلينَ الآنَ يا غيدائي؟
نفسُ السؤالِ يعودُ كلَّ مساءِ

وتعودُ ذكرى وارتعَاشةُ قُبلةٍ
حمراءَ أغوتنا على استحياءِ

عينٌ مُفَتَّحةٌ وأخرى لم تزل
تحتالُ مُغمَضَةً على الظلماءِ

وتَخَيُّلاتٌ ساحراتٌ ليسَ لي
منها سوى حظِّي منَ الإغفاءِ

فأقومُ أسألُ من جديدٍ يا تُرى
ما تفعلينَ الآنَ يا غيدائي؟

غادَر الصحفيُّ بعدما أكمل شاكر قصيدته، لكنّ شاكر لم يشعر به، جعلتهُ الآهُ وهو يلقي قصيدتهُ يغادر كوكبَ الأرضِ إلى كوكبِ الحنين.. إلى مَلكوتِ الجراح، فرقٌ كبيرٌ بينَ أن تسمعَ عن الحزن وبينَ أن تسمع منه، قلبهُ الصغير الذي شاخ شوقاً وهرمَ حنيناً صارَ يُفتتن بأي ذكرى جميلةً كانت أو قبيحة حتى قامت عليه كرّياتُ الانتقام فكانَ يمشي بينها ويردد: قلبٌ عجوزٌ أصابته دعوةُ حُبْ!.

"الزواج أطهرُ سحابةٍ في سماء الحُب"، عبارةٌ كتبتها يوماً في أحد مواقع التواصل الاجتماعي، لم يُعلِّق شيئاً.. تركها تتقلب على النارِ ثلاثةَ أيَّام يأخذها سؤالٌ وتأتي بها أسئلة.. التقيا بعدها في المقهى لم يكن في قلبها شيءٌ أهمَّ من معرفة ردّة فعله بما كتبت وتَجاهل.

قالت له– حدثني عن أصدقِ ما قالته العربُ في الحب

تبَّسم وهو يضعُ فنجان القهوة وينظرُ في عينيها ثم قال: قول نزار

الحبُّ ليسَ روايةً شرقيةً
بختامها يتزوجُ الأبطالُ

–يا لهُ من وغد!

باغتتهُ مسرعة– ولكنَّهُ رغمَ هذا تزوّجَ بلقيس

وهوَ ينقرُ بإصبعه صحنَ فنجانه– هكذا همُ الشعراء يا عزيزتي يقولونَ مالا يفعلونْ!

كانت غيداء أو غرور كما يحلو لهُ أن يُناديها كلَّما استقبلت يوماً جديداً من أيام الفراق فتحت دفترها وقرأت شيئاً مما كان يكتبهُ لها بخط يده من عباراتٍ صغيرة، قال لها: ستجدين مأوىً لقلبكِ إن سافرتُ يوماً، ستجدينَ مع هذهِ الكلمات التي أكتبُ لكِ في كلِّ لقاءٍ بيننا أقراصاً من صبرٍ ومرهماً من أمل.

سفرهُ الأخير كانَ روحياً، صدَّقتهُ غيداء لكنَّها ما وجدت في دفترها مما قالَ شيئاً، بل فاجئها سرطانٌ من الذكريات مُختبئٌ بينَ سطور هذا الدفتر تسبب في تساقط قلبها عدة مراتٍ مما جعلها تتعاطى جرعاتٍ مُكثفةٍ من كيماوي القصائد صبَاحَ مساء، كان شِعرهُ هو المأوى الحقيقي لها والبقيةُ الباقيةُ منهُ، هو الرفيقُ المُخلصُ بين كل هداياه، هو المفزعُ في البكاءِ وهو الفرح، وهل ثَمَّةَ ما يُدعى فرحاً بعد الفراق؟.

الشعر هو القاتلُ ببطءٍ فظيع وتنسيقٍ رهيب ولكننا نُحبُّ الموتَ بينَ يديهِ، دائماً ما تردد هذا أمام صديقاتها ولأمينة خاصة، تقولُ لها: لم يكن الشعر كزجاجة العطر التي أهداها لي ذاتَ قرب فتلك لابد وتنتهي ولم يكن الشعر خاتماً من ذهب ولا عصفور كناري يُزقزقُ يوماً ويسكتُ أياماً.

شدَّها الحديثُ واستدرجتها الآهات فباحت لأمينة بما لم تكن تحدثُ بهِ غير نفسها، صارحتها بما لم تُصارح بهِ صديقةً غيرها فأكملت: سرقهُ حبُّ الظهورِ منِّي كما تسرقُ العينُ النظرة، كانَ شاعراً مغموراً لا يعرفهُ إلا مجموعاتٌ قليلة من بناتِ الجامعات عبر مواقع التواصل الاجتماعي والبعض من أصدقائه، بدأ يكبرُ شعرهُ شيئاً فشيئاً وكنتُ أمه بكل أسف، أرضعتهُ الإلهام قطرةً قطرة وضممته إلى صدري يوم مقته الناس وآويته بقلبي يوم طردوه في بداياته، الآن وقد شيّدَ صرحهُ الشعري وصارت قصائدهُ كالسحاب نسيَ أنني أمهُ الملهمة نسي كم سهرتُ ليلةً أترقبُ ولادةَ قصيدةٍ جديدة، لقد نسيَ يا أمينة أنني حفرتُ حبه

ونقشتُ قصائدهُ في قلبي كما يحفر الدمعُ مجراهُ في خدودِ أرملة، لقد نسيَ أو تناسى لا يهمني هذا العاق، ما يهمني أنني موقنةٌ بهلاكِ من يعقُّ أمه وأنهُ تركَ الشعر معي ولم يأخذه معه.

تنهدت: الشِعر يا صديقتي هو حبي على ما يبدو وليسَ الشاعر!.

لا يشبهُ الشعر شيئاً مما تركَ لها في جوارير الهدايا ولا في غيرها، الفرقُ بينَ الشعر والهدايا أنهُ تركَ الهدايا لها أما الشعِر فتركهُ بها.

الخيال هذا الملجأ الكبير الذي يُتيح لنا رسم ما نشاء كيف نشاء ومتى نشاء وأينَ نشاء بلا أشياء، هذا الملجأ الذي يؤوي عواطفنا عن نيران وقذائفِ الحقيقة التي نعيشها ويضمنا حين نلفظُ الأرضَ وواقعها المرير، هو الوحيد الذي يسمح لنا بعيش ما نريد كما نحن نُريد، هو الذي لا تعجزه المسافات ولا تعرقلُ حركته طقوس الجو، فاقت سرعته سرعة الضوء والصوت، يأخذك من أقصى الدنيا إلى أقصاها الآخر بجزءٍ من الثانية، يتركُ لك أنت كتابة سيناريو رحلتك به فأنتَ من يضع البداية وأنت من يضع النهاية، هذا الخيال الذي صنع منه بعد الله شاعراً وصنعَ منها كذلك رسامة هو الأقربُ إلى قلبيهما قبل الفراق وبعده، هو البنج المخدرُ لآلام الحنين والرفيق الذي لا يخون.

قالت لأمينة: الخيَال يأخذني إليه فأستمتعُ به أكثر مما استمتع به في الحقيقة.

تنهدت أمينة– ليتَ الخيال يحكمُ الحقيقة يوماً لكنه يظل خيالاً!

"الحُبُّ كذبة"، عنوانٌ مُستهلكٌ لمقالٍ قرأتهُ غيداء في مجلةِ "صَدى الشعر" التي لا تعرفُ أنَّ شاكر عربي هو مؤسسها والقائمُ عليها أولاً بأول، كانَ ذكياً في إخفاءِ بعضِ الأمورِ التي استطاعَ من خلالِ إخفائها إيصال ما يريد لها بعد الفراق كهذهِ المجلة مثلاً، مما جاءَ في هذا المقال: أعرفُ أنَّكِ تقرئين مقالي وأعرفُ أنَّكِ حتى لحظةِ قراءتكِ هذهِ الكلمات تذوبين بي، ولكن صدقيني الحب كذبة، أعرفُ أنني مغرمٌ حتى بعد شهورٍ من الغياب بكحلِ عينيكِ وذائبٌ كقطعةِ سكرٍ بينَ شفتيكِ، ومع ذلك يؤسفني أن أقول لكِ إنَّ الحُبَّ كذبة، أعرفُ أننا رغم انقطاعِ هواءِ الحب عن فضائنا الكبير ورغمَ أننا صرنا نتنفسُ الحبّ بالذكريات من ثقوبِ المقاعدِ التي كنا نقعدُ عليها في الحدائق مازال فينا بعضُ أمل ولكنَّ هذا الأمل لا يدلُّ على أن الحبَّ حقيقة بل يُثبتُ لنا أنّهُ كذبة فلو كانَ حقيقةً لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه صدقيني صدقيني صدقيني بالثلاثة،الحبُّ كذبة!.

إنها تشمُّ رائحةَ حروفهِ بينَ السطور، تعرفُ أسلوبَهُ بالكتابةِ جيداً ولكن ما الذي يُثبتُ أنه هو ، كلُّ كلمةٍ تصرخُ إنَّه هو، كلُّ حرفٍ كلُّ تنوينٍ كلُّ نقطة فمن يُثبتُ لها ذلك؟ مع أنَّهُ في كثيرٍ من المقالات كان يُصرحُ باسمها "مُتَعمداً" ولكنَّ شيئاً ما "لعلهُ اليأس" يقولُ لها ليسَ هو وكان صوتُ هذا الشيء في قلبها أعلى من كلِّ الأصواتِ التي قالت لها إنهُ هو، لا تنتهي مقالاتهُ باسمهِ إنما كانَ يختمها برمز " ن.غ " الذي زادَ حيرتها وما الذي جاء بأولِ حرفٍ من اسمها لهذا الرمز!، لماذا "غ" وما

قصده بحرف "ن" قبله !؟؟ ، لم يأتِ هذا الرمزُ بمحض الصدفة، لقد درسهُ بعنايةٍ فائقة قبل نشره هو اختصارٌ لسلسلةٍ بدأ كتابتها اسمُها "نهاية غرور" حتَّى الفراق نفسهُ لا ينالُ من الآخرِ كالشك ولذلكَ تقصدَّ أن يرميها بسهامٍ من الشكِّ ليست قاتلة إنَّما مُعطبة وكلَّما عوفيت من شكٍّ رماها بآخر.

•••••

كنتُ مرةً في أحد المحلات التجارية الكبيرة أنتظرُ دوري لدفعِ قيمةِ ما اشتريت، وكان يقفُ إلى يساري شاب أسمر طويل رياضي القامة يرتدي قميصاً أزرقاً، وضع أغراضهُ بما فيها جوالهُ أمامه على طاولة المحل ليخرج النقود استعداداً لدوره، رنَّ جوّالهُ " غيداء تتصل بك" نظرتُ إلى شاشةِ جوالهِ بطريقةٍ حمقاء ما كنتُ لأنظر بها لو كنت بكامل قواي القلبية ونفسي تقول لي: غيداء غيداء في كلِّ مكانٍ غيدا.. يا الله!

سألني وشَرارُ الغيرةِ يقدحُ من عينيهِ:

إلما تنظر؟

فأجبته بدونِ تفكير– ماتت

– من هي!؟

– غيداء.. غيداء ماتت

بزفيرٍ طويل قال في آخرهِ: الله يشفيك!

نعم ظنَّ أنَّني مجنون، أسف هو تيقن أنني مجنون لم يكن مجرَّد ظن، ومن غيرُ المجانينِ يفعلُ ما فعلت؟.

تلكَ كانت الصفحة ١٣ من دفتر "يوميات ما بعد الفراق" التي بدأ كتابتها من أولِ يوم فراقٍ بينهما والتي حوت دقائقهُ وثوانيهِ بكلِّ رمشةِ عينٍ ودقةِ قلبٍ ونبسةِ شفة، ناهيكَ عن الأسئلةِ التي ما كلّت ولا ملت تنهشُ عقلهُ وتأكلُ أفكارهُ كأنَّهُ من خشبٍ وكأنها منشار، يكتبُ هذهِ اليوميات بدونِ قيود ولا خطوط ولا تورية فهو لم يُخبر أحداً عنها وإن علمَ بها أحدٌ فلن يسمحَ له بقراءةِ ما فيها، ستقعُ هذهِ اليوميات في

يدها يوماً، الأمرُ الذي لم يخطر على بالهِ بتاتاً عندما بدأ كتابتها، كذلك سبقَ لهُ أن خطَّ على لوحة بيضاء كبيرة عبارةً ما كانَ ليكتبها أو ليؤمن بها ما قبل الفراق: عليكَ أن تمدَّ يداً قصيرةً لغريقِ حُبّك تؤملهُ بالنجاةِ ولا تُنقذهُ من الغرق.

خطَّ هذهِ العبارةَ وعلَّقها في غرفتهِ أمامَ سريرهِ لتكونَ أولَ عهدهِ بالحقيقةِ بعد الحلمِ طيلةَ الليل، علقها لتشاركهُ سهرهُ طعنةً طعنة، وبدأ يمارسها عملياً أيضاً فهو مؤمنٌ أنها الدواءُ الوحيد لامرأةٍ لم تكتَفِ بهِ مشوياً على الفحم بل إنَّها أكلتهُ بعظمه!.

كلُّ شيءٍ يتآمرُ عليكَ بعد الفراق، ساعاتُ الليلِ التي كانت تمرُّ كالثواني وأنتما تتحدثانِ على الهاتف ستصيرُ الدقيقةُ منها سنةً ضوئيةً بحالها، الصباحُ الذي كانَ يُشرقُ من قلبكَ إلى العالمِ كلهِ، لن يُشرقَ الآنَ لا من قلبكَ ولا من قلب غيرك، الابتسامةُ التي كانت منحوتةً فوقَ وجهكَ سيحفرُ الدمعُ لهُ ألف مجرى مكانها، الهدايا، الأماكن، الورود، كلُّ شيءٍ صغيراً كانَ أو كبيراً سيُصبحُ خنجراً بثياب ذكرى وستفتحُ له قلبكَ دون تردٍ مع أنك تعي أنهُ سيقتلك وإن نجوتَ منهُ بمعجزةٍ ما فإنكَ حتما ستموتُ برصاصاتِ الأسئلة التي تُخططُ أن تسألها حبيبكَ إن عادَ يوماً مع ثقتكَ الكاملة أنهُ لن يعود.

غيداءُ التي أتمتَّ ثلاثاً وعشرينَ ربيعاً من عمرها تسألُ نفسها اليوم هل ستتوحدُ الفصولُ عليَّ فيصيرُ العُمرُ الباقي خريفاً كلّه؟ أم أنَّهُ سيُعيدُ بعودتهِ الربيعَ إلى سنيني؟.

أتلفتُ حولي فلا أجدُ إلا بقايا من لقاءاتٍ مُعلقةٍ فوقَ حيطان الألم وعقارباً متوقفةً منذ زمن والساعةُ تسعُ لقاءاتٍ لم تتغير، لماذا تحدَّيتُ رفيقاتي أنني أسطيعُ إيقاعهُ في شباكي وأنَّ الشاعرَ لا يختلفُ عن أي رجلٍ آخر؟، وأنهُ لو طاولَ الغيمَ ما استطاعَ أسرَ نبضةٍ واحدةٍ من قلبي ليأسرهُ من بعد ذلك كلّه!، وماذا؟ دونَ أدنى مقاومةٍ تُذكر مني وقعتُ في حبّهِ من حيثُ يدري ولا أدري، كيفَ استطاعَ أن يرسمَ في كلِّ ابتسامةٍ من وجههِ الشهي عشرَ ابتساماتٍ في وجهيَ الجائع؟ كيف استطاعَ بنصفِ نظرةٍ أن يجعلني كالعجينِ بينَ يديهِ يُقلبني كيفَ يشاء، لعمري إنهُ ساحر أخذني إلى البحرِ وأرجعني عطشى بعدَ أن أوهمني أنَّ البحرَ غدار لأكتفيَ بماءِ روحه.

تقومُ إلى دفتره تُقلبهُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمال ثم تبكي وتبكي وتبكي ومن أمامها أملٌ يلوحُ بذارعهِ لها لكنَّ الدموعَ منعتها رؤيته ومن خلفها أكوامٌ من الفجائع هكذا تُسمي الذكريات فجائع، نعم هي فجائع بعدَ الفراقِ بلا شك.

كتبَ في إحدى صفحاتِ دفترها قول الشاعر:

وإنّي لأهوى النومَ في غير حينهِ
لعلَّ لقاءً في المنامِ يَكُونُ!

تقرأُ وتُتمتم: لا أؤمنُ بهذا البيتِ إطلاقاً كيفَ وأنا مذ افترقنا لم تذق عيني النومَ أصلاً وإذا أغمضتُها لبرهةٍ ظلَّ قلبي يقظاً كأنهُ في نوبةِ حرس، قامت مُسرعةً إلى جوالها ليسَ لقراءةِ رسائلهِ هذهِ المرة إنما لحذف رقمهِ من قائمة الحب، صحيح أنهُ مضى ثلاثةُ أشهرٍ على فراقهما وزيادة ولكنَّها لم تكن تجرأ على حذفِ رقمهِ من قبل أما اليوم فهي أقوى بكثيرٍ مما مضى هيَ لا تعلمُ أن قوتها هذهِ ستتلاشى بمجردِ حذفها الرقم، لقد حذفتهُ أخيراً.. حذفت رقمهُ حتَّى لا تتركَ لقلبها فرصة غدرٍ ذاتَ شوق.. ولكن هيهات إنهُ يحفظُهُ عن ظهرِ حُب.

حبَست الأشواقَ في قلبها لا هي أطعمتها لقاءهُ ولاهي تركتها تبحثُ عنه، وكلَّما ثارَ عليها شوقٌ ضربتهُ بسياطِ اللامُبالاة، لكنها نسيت أنَّ للشوقِ جيشاً من الحنين لا يُشبه جيوش العرب ولا حكومات العرب فهو لا يحتفظ بحق الرد، بل يحرّكُ أسطولاً بأكمله لأجلِ شوقٍ واحد إذا تطلب الأمر، فكيفَ بالأشواقِ كلها؟، حتما سيبيدُ كبرياءها، عاجلاً أو آجلاً.

شاردةٌ على سريرها قبيلَ الفجر تقرأ:

"أحبيهِ كما لم تحبه امرأة وانسيهِ كما ينسى الرجال"

آه يا أحلام، قرأتُ هذهِ العبارة حتّى جفَّ ريقي ولم أستطع نسيانه، قرأتُ كتابكِ "نسيان كم" كاملاً ما يقارب العشر مرات وفي كلِّ مرةٍ

أنتهي بها وأريد أن أغلق الكتاب يحضرني وجههُ على الصفحةِ الأخيرة ليقول لي مُتهكماً:

نسيانُ مثلي ليسَ أمراً هيّناً
فدعيكِ من أحلامَ يا مولاتي

حتّى وإن همَّشتِني ونَسَيتِني
باقٍ بشعري فيكِ والكلماتِ!

المصيبة ليست هنا يا أحلام، المصيبة أنني صرتُ كلما اشتقتُ إليهِ قرأتُ كتابكِ من جديد طمعاً برؤيته مرةً أخرى!.
تصحو من سكرةِ الحديث مع نفسها لتتذكر كلامهُ يومَ قرأت لهُ نفس العبارة لأحلام ذات لقاء، ضحكَ وقتها فاتحاً عيناه مندهشاً ثم هدأ وسكت سكتةً خفيفة ثم قالَ: قرأتها قبلكِ ولكن ما توقعتُ أن تعثري عليها، مع ذلك كنتُ أعلمُ أنكِ إن مررتِ بها ستقفين عليها ومن ثمَ ستقرأينها علي
–وما أدراك؟
–لأنكن معاشر النساء تخشينَ الفراق
بكآبة– نحنُ لا نخشى الفراق نحن نموتُ من الفراق بمجرد التفكير به، إنهُ لا يترك لنا مجالاً لأن نخشاه أصلاً!

–يا حبيبتي لقد صبّت أحلام في عبارتها هذهِ جامَ غضبها علينا نحن الرجال دون حق، كانَ الأولى بها أن تقول لصديقتها: أحبيه كما لم تحبه امرأة وضحي لأجله كما يُضحي الرجال.

غيداء والدمعة تقفُ بعينيها استعداداً للهطول– أخافُ أن تنساني يوماً؟

–كبري عقللكِ

–أرجوكَ غيّر الحديث بدأ صدري يضيق

رفعَ رأسها الذي هوت به على صدرها بيدهِ وقال مُغيراً مجرى الحديث بابتسامة–

–حبيبتي.. أنتِ ثابتةٌ في قلبي ثبات الأرقام في الرياضيات.

بصوتٍ خافت وابتسامة خجولة– من أين تأتي بهذا الكلام يا مجنون؟

بنظرةٍ قاتلة– من عينيكِ!.

قاطعتها وهي شاردةٌ فيهِ دموع الحنين إلى كذبهِ الجميل، تتذكر يوم طلبَ منها قبل سفرها إلى دمشق أن تتركَ لهُ شيئاً منها فقالت له: خذ هذا المنديل إنه رفيقي ما تركته منذ سنين

حرّكَ رأسهُ رافضاً

بابتسامة– ماذا تُريد؟؟

–أريدُ رائحتك.

إنَّ أولَ ما يفقدهُ المُحب هي رائحةُ أنثاه، رائحةُ جسدها الروحية، لأنَّ ما تُفرزهُ أجسامُ النساء ليسَ عرقاً إنهُ هرويين يدمنهُ كلّ رجل، كذلكَ تعتبر النساء رائحة الرجل الحبيب، كان شاكر يرفض أن تتعطرَ لأجله بل كانَ يُبالغ فيظهر الغضب إن فعلت، كم مرة قال لها اقتربي مني وتحدثي في وجهي واتركيني لأنفاسك، إنَّ الأمر لا يقتصرُ على رائحة الجسد وإدمانها بين الطرفين فالأنفاس عالم آخر لا تستطيعهُ الكلمات.

فتحت جوالها وعادت لرسائلهِ كالعادة، قرأت منها هذهِ المرة:

لقد تعرضَت لسرقةٍ في وضحِ النهار يا حبيبتي أمامَ كلِّ الناسِ بدونَ أن يُحركَ أحدٌ ساكناً وبدون أدنى مقاومة مني أنا المسروق قلبي وماذا؟ من سارقةٍ سرقتني وهي نفسها لا تدري!، كيفَ لسارقٍ أن يكونَ سارقاً وهو لا يدري إن هذا لشيءٌ عُجاب، سأدفع الفدية التي تريدين ولكن أعيدي إليَّ قلبي.

تتساقطُ دَمَعاتها فوق شاشةِ الجوال دمعةً دمعة لتحجبَ عنها الرؤية، إنّها تُحب كذبه أكثر من صدقه، جنونه أكثر من صوابه، تُحب أخطاءه وطباعه كما هي بدون أن يغير شيئاً منها، هذا هو الحب أن تقبل الطرف الاخر بسلبياته قبلَ إيجابيّاته بعُجَره وبُجَره كما يقولون، لقد كان اختصاصهُ سرقة القلوب ولأن اللص يظنُّ أن كلّ الناس لصوصٌ مثله.. اتّهمها بسرقةِ قلبه.

لا كليةُ الفنونِ الجميلة التي تدرسُ فيها غيداء ستُنقذها من قبحِ الدنيا بعد الفراق ولا قصائده الرقيقة ستنقذهُ من جلافةِ البعد، إنهُ الفراق غزير الأسئلة قاحلُ الأجوبة كئيبُ الليلِ ثقيلُ النهار، سمينُ الدمعِ نحيلُ الابتسامة، إنه الفراق بدايةُ الحب، فجميع ما كان قبله من حكاياتٍ وتفاصيل إنما هو تمهيدٌ للحب الحقيقي الذي يأتي بعد الفراق.

ما قبل الفراق يكونُ التعلق، والفرقُ بينَ الحب والتعلق شعرة يغفل عنها الكثير من العشاق، وتسمية ما قبل الفراق بالحب ما هو إلا وهم يصنعه العشاق من التعلق بالآخر، ويعلمونَ أنه وهمٌ ثم يُصدقونه عسى أن تجعلهُ الأماني حباً ثم إذا عجزت عنهُ الأماني وبدأ الحب الحقيقي بعد الفراق تندموا وصارت تلك الحكايات تقصفهم بقنابل الذكرى وترميهم بكلِّ ما أوتيت من قذائف التفاصيل!

الفصل الثاني

"لمحةٌ أولى"

في كل امرأةٍ، تنامُ قطة يقتُلها الفضول

– أحلام مستغانمي

تستعد صباحاً وهي تستمعُ عبر جوالها لفيروز "سألتك حبيبي" للذهاب إلى الكلية، قلبها يقول لها: ابحثي عنه أولاً ثمَّ اسأليه ما شئتِ!.
يطردُ صوتَ قلبها صوتُ خوفها: لا أريد أن أقع في فخ الحب كما وقعن نساءٌ كثيرات، يُداهمها صوتُ عقلها: يدٌ بمفردها لا تُصفق، وبينَ هذا القول وذاك تركضُ عقاربُ الساعة في يدها وتتأخر كالعادة.
وصلت إلى الكلية وكانت أمينة في انتظارها أيضاً كالعادة تحت المظلة رقم "١٥" أمام مقهى الكلية.

أمينة– تأخرتِ كثيراً، هذهِ هي المرة الأخيرة التي أنتظركِ بها يا غيداء.
– أعتذر يا أمونة والله أعتذر، تعرفين زحمة الطرق صباحاً
تنفجرُ أمينة– هذا وبيتكِ فوق بيتي وكلّ يوم أنتظركِ أمام البيت صباحاً حتّى ينقطع أملي ثم آتي فأنتظركِ هنا، وأنتِ تأتينَ مشياً مثلما آتي أنا، فأي زحمةٍ تلك؟ أما تخجلين من الكذب!؟
–تضحك بسعادة وخجل– كفى كفى يا مجنونة.

يمرُ هذا اليوم كما يمر غيره، لا جديد غير أن كلية الفنون الجميلة ستعلن في هذا اليوم عن أمسيةٍ شعرية لشاعرٍ شاب ليس معروفاً لدى الكثير من الطلبة، وستكون الأمسية في العاشر من الشهر القادم وهو اليوم الذي تليه إجازة مدتها ١٥ يوماً لطلاب الكلية.

يُجهزُ شاكر بكلِّ ما أوتيَ من بيانٍ لأمسيته في كلية الفنون الجميلة، الفرق بينه وبين غيره من الشعراء أن الشعراء يكتبونَ الشعر أما هو فالشعر يكتبهُ، إنهُ يعتبر الشِعر المتنفس الوحيد في هذهِ المقبرة الكبيرة التي تُسمى "الأرض"، يستعينُ بهِ على ضيقهِ ويهشُّ بهِ على مللهِ ولهُ فيه منافع أخرى، ولأنَّ الشعر موسيقى الروح فإنه تعلم عزف العود وطالما لحن ما يكتب، مع أنه بين أصدقائه يكرر دائماً نفس العبارة "كتبت الشعر ليقرأهُ الناس شعراً لا ليُغنى "ولكنه إذا خلا بنفسه كان يستسلم للعود، كان العودُ مترجماً بارعاً لرموز شعره.

أتمَّ قصائده التي سيلقيها في أمسيته الأولى في حياته والتي كانت السابعة في الحقيقة ففي كل أمسية جديدة يعتبرها هو الأولى مُحفزاً بذلك نفسهُ على أن أول أمسية هي فاتحة لما بعدها، إنه لا يكترثُ بالشهرة لأنه يؤمنُ أن الذين يركضونَ خلف الشهرةِ يرسبونَ غالباً في الإبداع، إنّ الإبداع مفتاح الوصول، له أجنحةٌ يطيرُ بها ويستطيعُ اختراق القلوب و استيطانها، لذلك كان بحثهُ عن الإبداع وكتابة ما لم يسبقهُ إليه غيره، غايته الأسمى، كانَ في قلبهِ شيءٌ للشهرة طبعاً ولكنَّه حجَّمه ولم يسمح له بالتفشي أبداً وهذا ما ساعدهُ فيما بعد على انتشار دواوينهِ وقصائدهِ بين الناس فأنت كلما حجَّمت شهوة كسبت رفعة، الآن وقد بقي على الأمسية ثلاثة أيام يحاولُ حفظ القصائد ولا يستطيع، يقولون: إن أعظم شعراء العالم لا يحفظون قصائدهم، لا يدعي أنه من أعظم الشعراء في العالم إنما هو فعلاً لا يستطيع حفظ قصائده وحسب.

لذلك كانت غيداء بعد الحب تخافُ من هذا و تحدثها نفسها دائماً: كيف لشاعرٍ لا يحفظ قصائدهُ أن يحفظ عهوده!؟.
لم تجد إجابةً لهذا السؤال، لكنها وجدت نصف إجابةٍ عند صديقتها أمينة التي قالت لها: كلُّ الرجال لا يحفظونَ عهودهم!.

•••••

بُشرى تتصل..
غيداء– أهلاً
– أهلاً حبيبتي، كيف حالك؟
– مشتاقة لك
– وأنا أكثر، ها هل ستحضرين أمسية الغد في الكلية؟
– بالطبع أنا وأمينة
– جميل إذاً سأتصل بسارة وأخبرها
– جيد، وما رأيك أن نذهب اليوم إلى السوق لنتحضر لها؟
– إذن سأكون عندكِ في تمام الثامنة مساءً إن شاء الله
– إن شاء الله، وأحضري معكِ سارة، مع السلامة
–مع السلامة

الساعة السابعة والنصف مساءً، وصلت بشرى وسارة، وبعدها بدقائق نزلت غيداء مسرعة وخرجت أمينة من بيتها الكائن أسفل بيت غيداء، وأوقفنَ تكسي وذهبنَ إلى السوق، في الوقت نفسه كان شاكر على موعد بصديقه أمير الذي كان يرافقه عادةً في شراء ملابسه بحكم خبرته وعمله في الألبسة الرجالية، اشترى شاكر طقماً رسمياً أسوداً وربطة عنقٍ وردية لقميصٍ أبيض، كان اختياره الأسودَ تعبيراً عن خلو قلبه من الحب واختياره اللون الوردي لربطة العنق تعبيراً عن تفاؤله بحبٍّ قادمٍ لا محالة، أما الأبيض فالشوق لهذا الحب الذي لم يأتِ بعد.

أنهت غيداء وصديقاتها شراء ملابسهن في الوقت الذي انتهى هو وأمير كذلك، وكان الوقت لا يزال مبكراً، قال له أمير: ما رأيك بفنجانِ قهوةٍ مُرّة؟

-جميل

- نذهب إلى الحمرا إذن؟

- توكلنا على الله

الحمرا هو الحي الذي يزورهُ أغلب أهل حِمص يومياً لوجود أشهر مقاهي حمص فيه، كانت لغيداء وصديقاتها ثلاث زيارات على الأقل في الأسبوع الواحد لهذهِ المقاهي، خرج شاكر من السوق هو وأمير في الوقت الذي وصلت بهِ غيداءُ وصديقاتها إلى الحمرا وجلسن في مقهى "ميكازا"، هناك في الخارج على الكراسي التي يضعها المقهى على رصيفه.

وصلا أخيراً ولكنَّ المقاهي الثلاث كانت مُمتلئة ولا مكان لإبرةٍ فيها، لم يكدرهما الأمر كثيراً فقد اعتادا عليه، وكالعادة ذهبا إلى المسبح البلدي الذي يقع خلف المقاهي مباشرةً وجلسا على كراسي الطاولة المحجوزة يومياً لهما سواءً حضرا أم لم يحضرا، الجديد في الأمر أن هذا اليوم كان حافلاً بمباراة فريقي "الكرامة والوثبة" وكانت الناس جميعاً تتجه بطاولاتها وأنظارها إلى الشاشة الكبيرة في أول المسبح، وأصوات الجماهير كانت عاليةً جداً خصوصاً أن المسبح كان تابعاً للملعب "ملعب خالد بن الوليد" فمن يجلس في المسبح يشعر وكأنه في الملعب لأصوات الجماهير القريبة جداً وإضاءة الملعب الكاشفة والتي تصل للمسبح كذلك، في الوقت نفسه تتصل أم غيداء بها لتخبرها أنها وأخواتها –خالات غيداء– في المسبح، لتضطر غيداء إلى ترك المقهى هي وصديقاتها والذهاب إلى المسبح فوراً.

انزعج شاكر من هذهِ الضجة وهو الذي يكره كرة القدم بطبعه، ولكي لا يفسد على أمير متعة متابعة المباراة التي ما كان يعلم أنها اليوم، قرر أن يتحمل، في هذا الوقت دخلت غيداء تبحثُ عن طاولة أهلها، هاتفها على أذنها وأمها تدلها وهي بالكاد تسمع في هذهِ الضجة، تلتفتُ يمنةً ويسرة بحثاً عن طاولة العائلة، وجدتها أخيراً، كانَ من اللافت لها ولغيرها منظرُ شاكر، لقد أدار ظهره للشاشة التي أدار لها الجميع وجوههم!.

تنظرُ إليهِ من بعيد ويصعبُ عليها تمييزُ ملامحه، الفكرة التي خطرت ببالها كالفكرة التي ستخطرُ ببال كل من يراه هكذا هي أنهُ لا يُحب الكرة، وزيادةً على ذلك خطرَ ببالها أن يكونَ فعلَ ذلك جذباً لأنظار البنات من حوله وهذا احتمالٌ ضعيفٌ لديها خاصةً أنهُ كانَ ممسكاً بجوالهِ وكأنهُ يجلسُ وحيداً في غرفة، قالت لأمينة: انظري لهذا الشاب

نظرت أمينة– يبدو أنهُ لا يُحبُّ كرةَ القدم

–ما الذي يُجبرهُ على الجلوس هنا إذن؟

تهز أمينة رأسها– صُحبة صديقه على ما يبدو

–لا أظنُّ ذلك

–أووه مالكِ وماله أنتِ؟؟ دعيني أتابع المباراة!

يأمرها فضولها فجأةً أن تنسحب بهدوء صوب دورات المياه، الأمر الذي سيُمكنها من رؤيته عن قرب ذهاباً وإياباً.، مشت فعلا ولم تتردد، كلما اقتربت منه خطوة زادت دقاتها دقة، لماذا؟ هي نفسها لا تعرف بل إنها لم تشعر بذلك حتّى صار بينها وبينَ طاولته خطوات يسيرة، مرت بقربه ولم يرفع رأسه عن شاشةِ جواله، وقَفَت قليلاً قربَ دورات المياه ثمَّ عادت، ولّما اقتربت منه حدقت به أكثر، رفع رأسهُ لما اقترب سوادها منه فوقعت عيناه في عينيها، عجلّت الخطى وأرجع رأسه، حتى وصلت طاولتها مرةً أخرى.

اقتربت من أذن أمينة وقالت لها: يجذبني هذا النوع من الرجال.

أمينة وبابتسامة مكر– أيُّ نوع؟

–لا تتغابي

–وما يجذبكِ له؟

–لا أعرف، شيءٌ إليهِ يشُدني

–أعرفه جيداً

–ما هو ؟

–إهمالهُ لكل البنات على الطاولات من حوله

–لا ليس هذا

–ماذاً إذاً

–إذا عرفت سأخبرك!.

قضت أغلب ليلها وهي تُفكر به، ما الذي جذبها إليه؟ الكثير من الشباب يلهثونَ وراء نظرةٍ واحدةٍ منها؟ هذا جمال ابن جيرانها تقدم لها أكثر من ثلاث مرات ورفضته مع أنهُ خريج "تجارة واقتصاد" ويعمل في الامارات ومادياته جيدة جداً، وهذا نضال ابن خالتها "طبيب جراح" تقدم لها كذلك ورفضته وهو من هو، وفلان وفلان وعلان، تمر أمامها الأسماء وقلبها يقول لها هذا هو، هي لا تريد أن تصدق حديثَ قلبها، فهي لا تعرف من هذا الشاب أصلاً، ثمَ ما الفائدة وهو الذي لم يلقِ لها اهتماماً أبداً، مع أنها يوم قامت وعائلتها لتغادر المسبح وافق ذلك

مغادرته أيضاً، ومشى خلفهم والتفتت إليه أكثر من مرة في محاولةٍ منها للفت انتباهه، ولكنه كان منهمكاً في الحديث مع صديقهِ وكأنهُ لم يتحدث إليه منذ سنة، لا شيءَ يقتل المرأة كالتجاهل! في الحقيقة لم يكن تجاهلاً، فقد كانَ شاكر يصفُ لأمير خوفهُ من ليلة الغد وأنهُ يشعر وكأنهُ سيقفُ على المسرح لأول مرة وأن الشعر أمانةٌ في عنقهُ يجبُ أن يؤديها على أتمّ وجه، تقول في نفسها: حتى لو انتبه إليّ ما الفائدة وأنا لا أعرفه ولا أعرف له عنوان؟، كانت تنتظرُ منه نظرةً فقط، نظرةً تضمنُ لها النوم هذهِ الليلة! فتحت شُبّاكَ غرفتها وأخذت تتأملُ القمر الذي تغطى من برده بالغيوم، تحاول الهروب من هذا الوسواس الذي ركبها فإذا بهِ يمدّ بساطهُ في خيالها ويتربع في أفكارها حتّى الصباح.

تُحدثُهُ نفسهُ وهو أمام المرآةِ يتجهز للخروج للأمسية: ألقِ شعرك وكأنكَ تجلس في غرفةٍ وحدك، إيَّاك أن ترتعش من الحضور، في البدايةِ انظر إلى أعلى رؤوسهم وسيظنونَ أنك تنظر إلى أعينهم ريثما تنزاحُ عنك الرهبة، ابتسم أولاً، وما يدريك لعلَّ فتاةً بينَ الحضور تكون لك! ألقِ بكلِّ جوارحك، دع كل عضو في بدنك يُلقي القصيدة كما يحلو له ساحةُ الشعر شبهُ فارغة وأنت لها ولو كانت ممتلئة، يوماً ستذكرُ هذهِ الأيام وتضحك كم كنت صغيراً.. وكم كبُرت.

في هذه الأثناء وصل أمير، فتحَ له شاكر الباب فرآهُ فرحاً مُبتسماً مما خفف حدة التوتر عنده.

بدأ أمير يعطّره ويربطُ لهُ ربطة عنقه وشاكر يبتسم، سألهُ أمير: على غير عادتك في الأمسيات الست الماضية أراك مُبتسماً؟

–تذكرتُ أمي، هذهِ أول مرة أخرجُ فيها إلى أمسية وهي بعيدة حفظها الله ورعاها

– بقي لك أيام وتُسافر عندها، المهم أن تعتبر أن أمك بين الحضور وأنك ستبذل كل جهدك لتسعدها بك

–هو كذلك يا صديقي.. هو كذلك

في الوقتِ نفسهِ كانت غيداء وأمينة ينتظرن سارة وبشرى في بيت أمينة، وصلنَ أخيراً وخرجت غيداء وأمينة إليهنّ وأوقفنَ تكسي وإلى الكلية فوراً، بقي على الأمسية عشر دقائق، وصل شاكر وصعد المسرح وهنَّ ما زلن في الطريق، قدمهُ للجمهور بسام طالبٌ في كلية الهندسة المدنية، صعد المنبر مُبتسماً وبدأ ببيتينِ يرحبُ فيهما بالحضور:

فَرحٌ أنَا، ما أندرَ الأفراحا
بِكمُ.. وليلي فيَّ صارَ صباحا

نوَّرتمُ روحي وكانت عُتمةً
وشفيتُمُ قلبي وكانَ جراحا

يُصفق له الجمهور مُتفائلاً بشاعرٍ بدأ ببيتينِ جميلين.

يُتابع نثراً : أيُّ حظٍّ نالَ شاعراً بحضوركم.. أيُّ دعوةِ أمٍ في ليلةِ قدرٍ أصابته؟، يُصفقُ الجمهور بحرارة أكبر.

هنا وصلت غيداء وصديقاتها ونزلن عند مدخل الكلية، كان بين المدخل والمسرح قرابة أربعمائة متر, وبمجرد نزولهنَّ من التكسي يرنُّ هاتفُ غيداء، إنها أختها زهراء، ماذا تريد؟؟، يا ساتر يا رب، تتأخرُ عن البنات قليلاً وتقول لهن اسبقنَني وسألحق بكن، تفتح الخط

-ألو

زهراء بصوتٍ باكٍ- غيداء.. أمكِ يا غيداء زلقت في المطبخ وهي تُحضر لأبيكِ القهوة، ثم يقطعُ البكاء صوتَ زهراء، وتنهار أعصاب غيداء، تركض كالمجنونةِ في الشارع وتؤشر للسيارات من أجل تكسي، تقف لها سيارة تكسي أخيراً وإلى البيت.

•••••

لن يستطيع قارئٌ على هذه الأرض أن يستشعر مدى الألم الذي جعل شاعراً يكتب ما يقرأهُ هو وغيره إلا أن يكونَ شاعراً مثله، كذلك المُحب لن يستشعر حبَّه من لم يذق الحب حتى يُحب ولهذا شواهد كثيرة في الأدب العربي أعذبها قول أبي الطيب المتنبي:

وعذلتُ أهل العشق حتَّى ذقتهُ
فعجبتُ كيفَ يموتُ من لا يعشقُ!

لكنَّ شاكر استطاع أن يخرق هذه القاعدة فكتب عن الفراق وعن الهجر واللوعة عن الشوق والحنين وهو لم يعش شيئاً من هذا كله وذلك بتأثره بما مرَّ به أصدقاؤهُ وخاصةً أمير الذي كان يُحب تغريد حباً جنونياً كانت نهايته كنهاية أيّ حب، كانت نهايته الفراق، كان أن أمير يقول له بعد كلّ قصيدة: أنتَ تكتبُ موتي بيديك يا شاكر، كان يبتسمُ ويُجيب:إنما بالموتِ تأتيك الحياة.
مع ذلك لن يكون إبداعهُ في الكتابة عمَّا كابدهُ أمير شيء أمام ما سيكتبهُ عن نفسه يوماً، سيكتبُ موتهُ بيديه لكنها لن توهب له الحياة كما كان يعتقد، لأنَّ الحب متى وقع في قلبك لن يخرج منه ما حييت وعند الموت سيموت معك، إلا إن كنت شاعراً فستموت أنت ويخلد هو.

تغريد التي أحبها أمير وأحبته قالت لهُ يوماً: تعال واخطبني ولو بخاتمٍ من خشب، هكذا هيَ الأنثى تتنازل عن أغلى ما تملك لأجل الحب، كيف لا وهي التي تهدي حبيبها مكافأةً لصدق مشاعرهِ وزواجه منها عُذريتها، إذا كان هناك شيءٌ في هذهِ الدنيا لا يُقدر بثمن فهو عذرية الأنثى، ومع ذلك يأخذها الزوج حباً، لقد كان أمير مُحباً صادقاً، استمر لتسعةِ أشهرٍ كاملة يستيقظ صباحاً ويلبس ويتعطر ويخرج ليقف لها في طريقها إلى الجامعة عسى أن يرق قلبها وتنظر له، كانت مولعةً به طوال هذهِ المدة لكنها كانت كالياسمينة بيضاء القلب نقية الروح تخاف أن تقع في شباك الحب، تخاف أن تحب شاباً هي لا تعرفه إلا من خلال وقوفه لها في طريقها ذهاباً وإياباً ليسمعها كلماتٍ من غزلٍ يبان صدقها في ملامح وجهه، إنها لا تثق بشابٍ أهداها غزلاً من خلالِ الطريق، فكما غازلها سيُغازلُ غيرها هكذا كان فكرها في البداية ولكنه تغير مع إصراره لمدة تسعة أشهر ما قطع فيها يوماً، وهي التي ما ابتسمت له ولا نصف ابتسامة، في الحر في البرد في المطر في الصحو في الثلج تغيبُ هي وهو لا يغيب، أينما التفتت رأته أمامها، تُحب الأنثى بطبعها هذا الجنون إنه يُشعرها بالأمان.

بعد أن فشلت كلُّ محاولاته في أن يصل لها قال له شاكر: أستطيع أن آتيك برقمها

أمير ينتفض– كيف!؟.

يغمزهُ مُبتسماً– لا تسألني.. سرُّ المهنة.

أمير غاضباً– قل لي كيف وإلا..

– وإلا ماذا؟

– بدأتُ أغتاظ منك قل لي كيف.

– وما شأنك أنت؟ أنا أحضره لك

بغيظ– لا أريده

يضحك– رأيتها برفقة هدى ابنة خالتي قبل أيام يبدو أنهن يدرسن في نفس الكلية.

– رائع جداً، ممتاز، وماذا ستفعل

–هذهِ مهمتي أنا لا عليك

استطاع شاكر أن يحضر لهُ رقمها، ولكن لا تكمن المشكلة في العثور على رقمها بقدر ما تكمن في اتصاله بها وبأيّ حُجةٍ سيتصل وماذا سيقول ومن أين عثر على رقمها إن سألته، خصوصاً أن هدى حرَّصت على شاكر أن لا تعلم تغريد أنها هي من أعطتهُ الرقم، سيتصل بها بلا شك، لأن لهفته لسماع صوتها أكبر من خوفه، وشوقه لأن تقول له "ألو" أقوى من تردده، وفضولهُ لاجتياح عالمها أعظم من صبره.

اتصل أخيراً..

تغريد– ألو

يبقى صامتاً

–ألو

يغمض عينيه مُستمرّاً بصمته

–ألو ألو

تُغلقُ السماعة.. ويبتسم.

تُشبهُ مكالمتهُ الأولى هذهِ مكالمتهُ "بعد الأخيرة" يوم اتصل بها بعد ما انتهى كل شيءٍ بينهما ومرَّ على فراقهما قرابة السنة فقط ليسمع صوتها.

قالت للرقم الغريب الذي اتصل بها وهي تعلم أنه هو: "ألو"

وكررتها مراراً ولا مجيب..

أغلقت السماعة.. وبكى!.

•••••

إذا لم تتخلَّ عن أكثر مبادئك –إن لم يكن كلها–، إذا لم تشتعل كالسيجارة شوقاً كل ثانية، إذا لم يُعاديك أهلك وأصحابك، إذا لم تقدم على أشياء ما كنت لتفعلها من قبل ولو أُعطيت جبلاً من ذهب، إذا لم تبحث في كل شكٍّ جديد عن ألف عذرٍ غير مقنع وتعرف أنه غير مقنع ومع ذلك تقتنع، إذا استطعت أن تنام في الليل لساعات متواصلة، إذا استغنيت لخمس دقائق عن هاتفك المحمول، إذا كنت لا تقرأ رسائل الحب ألف مرةٍ في اليوم وتراجع محادثاته ألفيّ مرة، إذا لم يرتسم طيف الحبيب أمامك كل ما رمشت عينك، إذا تغلبَ صوتُ عقلكَ على صوت قلبك، إذا لم تنتقل بلمحة حب من كائن يحمل في داخلهِ كريات دمٍ حمراء وبيضاء إلى كائن يحمل كريّات حنين وبكاء، إذا آمنتَ بالصداقةِ بعد الحب، إذا لم تمت وأنتَ على قيد الحياة.. فراجع حبك.

لا تكن في الحب كالذين يصفّونَ أحرفهم بشكلٍ مُرتب في صفحاتٍ أنيقة ويطلقونَ عليها اسم كتاب فقط ليكتبوا على ملفهم الشخصي في مواقع التواصل الاجتماعي مؤلف كتاب كذا ومؤلفة كتاب كذا، وهذه الكتب لم يسمع بها أحد وقد تكون ممسحةً لزجاج المحلات يوماً ما كالجرائد، لا تكن كذلك كدور النشر التي تساعدهم على تقديم هذهِ النفايات الأدبية التي أحرقت علينا ما تبقى قرّاء.

أطلق لروحك العنان دعها تطير، كن مختلفاً في حبك، ليس عليكَ أن تكون أكاديمياً لتُحبَّ، الحب لا تحتاج معه لمدارس ولا جامعات ولا دورس خصوصية، كمال الحب في أن يكونَ أُميًّا.

أطلق روحكَ إذن، دعها تمارس الجنون الذي لا تسقيم بغيره علاقة ولا يدوم دونهُ ودّ، نعم الجنون، لا تستغرب هو روح الحب إذا تخليتَ عنه فأنت تعيش الحب بجسدٍ ميت لا روحَ فيه لا مغامرة، جسد ضاجعه ملايينُ العشاقِ قبلك فأنجبَ لهم الفراق، لا تَحْبُ حبوهم، ضاجع أنتَ الروح لعلَّها تُنجب لكَ البقاء.. من يدري؟

•••••

كان الأمر مجرد رضّ خفيف في رجل والدتها، ولكنها عادة النساء يجعلنَ من الحبةِ قُبّة، اطمأنت على والدتها ووبخت أختها زهراء على تهويلها الأمر ثم دخلت غرفتها في محاولة منها لاستعادة أعصابها، تذكرت هاتفها وأنها لا تعرف عنه شيئاً منذ ركبت التكسي قبل ساعة تقريباً، بحثت عنه في شنطة اليد لتجده وتجد أكثر من ثلاثٍ وعشرينَ مكالمةً من أمينة وبشرى وسارة ورسائل منهن أيضاً.

"أينَ أنتِ"

"غيداء ماذا جرى لكِ"

"بدأتُ أخافُ عليكِ أرجوكِ ماذا بكِ "

كان بقي على انتهاء الأمسية قرابة الربع ساعة، أرسلت لكل واحدة منهن نفس الرسالة: اطمئني أنا بخير أتصلِ بكِ غداً إن شاء الله.

ألقت بجسدها على سريرها فاتحةً ذراعيها مغمضةً عينيها تحمد الله على نجاةِ أمها، باغتها طيفُ وسام، ثلاثةُ أعوامٍ مرَّت على فراقهما، ثلاثةُ أعوامٍ تزوجَ فيها وأنجب، تزوج فيها ونسيَ كأنَّ حباً لم يكن، ثلاثة أعوامٍ.. لم يبقَ في قلبها له إلا الذكرى التعيسة، هذا الذي أحبتهُ وهي في الثامنة عشر من عمرها واستمرّا لعامين، كانَ حبها الأول وكانت حُبه الثالث أو الرابع الله أعلم! كل الذي تعرفه هو أنها أحبته بكل ما في الطفولة من براءة، بكلِّ ما في المراهقة من حماقة بكل ما في الأنثى من رقة، وأنه لمّا قضى منها شهوةَ أن تحبهُ فتاةٌ بجمالها النادر وتأكدَ أنهُ حفر حبهُ في قلبها وأنها ولو عشقها ألف رجلٍ بعده لن تستطيعَ الحب.. غادرها، هكذا بهدوءٍ كما تغادرُ الشمسُ السماءَ وقت الغروب، غادرها وخلّفَ وراءهُ ليلاً طويلاً كانت تظن، –وتظنُّ هنا من اليقين لا الشك– أن هذا الليل لا شمسَ بعده، لم تكن تعلم حينها أنَّ القدر يمشي بشمسِ حبٍّ جديد لن يكونَ حباً صبيانياً كما تُسمي حبها لوسام اليوم، بل إنه الحب الذي لا مجال لإضافة أي صفةٍ إليه إنه حب هكذا بحرفين لا زيادة فيهما ولا نقصان، يختالُ طيف وسام من جديدٍ أمامها، تُبادرهُ: ماذا تريد؟، يبتسم، تضحكُ ساخرةً منه: أيها الأحمق ماذا تنتظرُ مني؟ هل تنتظر أن أصدقك من جديدٍ وقد عرفتُ أنك وهم؟، هل تريدني أن أعيد المأساةَ من جديدٍ حتى تقرَّ عينك؟ يبتسمُ لها ولا يزيد على أن

يبتسم، هكذا هو طيف الحبيب يشبهُ فصل الشتاء يوهمكَ أنهُ أرفق بكَ من الصيف ولكنّهُ سرعانَ ما يفتكُ بك، قطعت هذهِ المناورات بينها وبين طيف وسام أمينة، تنظرُ في شاشة الجوال بعينينِ منكمشتينِ أمام ضوئها الشديد في عتمة الغرفة وتفتح الخط:

–أهلاً

بعصبية –غيداء

بضحكة خفيفة –لا تهاني

–وتضحكين!؟ أين أنتِ الآن؟

–اهدئي يا حبيبتي أنا في البيت

– أنا في الطريق إليكِ.

أغلقت أمينة الخط ولم تعط غيداء فرصةً لتعتذر عن استقبالها، كانت مُحملةً بمفاجأةٍ لا يستطيعها الصبرُ، وخائفة بالمقابل من أن يكونَ وقع لصديقتها أي مكروه، ودّعت الصبايا، ركبت سيارة الأجرة وإلى غيداء، في الطريق تخطفُ الأحاديثُ أمينةَ من نفسها، إنّهُ نفس الشاب الذي كان في المسبح البارحة، يا لها من مفاجأة، لن تصدقني غيداء، لابد أنها ستندم كلّ الندم لأنها عادت إلى البيت، ما الذي أرجعها للبيت هذهِ المجنونة؟

تسير السيارةُ ببطء وحِمصُ من حولها تُسدلُ الستار على العرض الأخير ليومٍ شاق.

في هذا الوقت خرج شاكر عربي وصديقه أمير من الأمسية وقررا الذهاب إلى شارع الخراب مشياً، المسافة لا تزيد على نصف ساعة سيراً على الأقدام.

شاكر– حلفتك بالله اصدقني يا أمير، ما رأيك؟

– رائع، واللهِ رائع يا صديقي، أما رأيت تفاعل الطلاب معك؟ بل والأساتذة الذين حضروا من كلية الآداب لأجلك.

وهو يشعل سيجارة– يا أمير يا أمير لا يهمني أن تتفاعل معي الآن وتنساني في الغد.

– ومن قال لك أنهم سينسونك في الغد؟ الشعر الذي يطرق أبواب القلوب ويدخلها لا يُنسى يا شاكر

– وهل تجد شعري كذلك؟؟ أم تقول هذا لأنك صديقي

– يا مريض كم مرة سأقول لك أنا لا أُجامل على حساب الأدب؟ صدقني لو كان هذا الحضور لشاعرٍ غيرك لما نام من شدة الفرح و لرأيت أنفه يصل السماء في اليوم التالي

– أعوذ بالله من الكِبر

– لقد حضر امسيتك أكثر من ثلاثمائة طالب وطالبة يا رجل!، خوفك هذا لا مبرر له

– أمير أنت لست غبياً لتصدق أنهم حضروا جميعاً لأجلي، منهم من جاء ليرى من هذا الذي اختارته كلية الفنون على من سواه وكلية

الآداب مليئة بشعراء معروفين على مستوى الجامعة، ومنهم "وهم الأكثرية طبعاً" جاؤوا بحثاً عن التعارف فالأمسية موعد لا يُفوّت لمن يبحث عن حبيب/ة

– ولو يا صديقي، المهم أنهم سمعوا لك شيئاً وصفقوا لك، لا تستهن بهم أبداً

– الحمد لله، ذلك من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسهِ ومن كفر فعليها

– إذاً فلتشكر الله بصدق، فكلامك قبل قليل ليس من الشكر في شيء

– الحمد لله الحمد لله

•••••

ليس أصعب من أن تولد شاعراً في زمانٍ لا يعرف من الشعراء إلا أراذلَهُم ومن شِعرهم إلا مدح الملوك والأمراء، ليس أصعب من زمانٍ تولدُ فيه شاعراً وجميعُ من حولكَ أميّون في الشعر، زمانٌ يأدُ الموهبةَ كما يأدُ الجاهليُ ابنته، ويذبحُ الكلمةَ كما يذبحُ الأعرابيُّ شاتهُ، إنّهُ العصرُ الحديثُ إذن، عصرُ "البريستيج" الذي أثّر حتى على القراءة، ففيما مضى كنّا نشتكي قلةَ القرّاء، أمّا الآن فهم كُثر ولكنهم قراء بريستيج، يقرأ أحدهم فصلاً أو فصلين من روايةٍ ما أو قصيدةً أو قصيدتين لشاعر ما فقط ليكتب في مواقع التواصل الاجتماعي قرأت كتاب كذا، وأعجبني ديوان كذا، ايهاماً منه لمن يتابعه أنه مثقف، من الذي أقنع هؤلاء أن أحدهم إن حفظ أسماء عشر روايات وقرأ مقدمة ديوان شعر صار مُثقفاً؟ ليس أبشع من أن تولد شاعراً في زمانٍ لا يعرف الشاعر إلا بعد موته، ما ذنب الذين يولدونَ وفي فمهم ملعقةٌ من شِعر في مجتمعٍ يولدُ فيه الناسُ وفي فمهم ملعقةٌ من فقر؟، فقر ثقافيّ مُرعب، على حساب الأدب وعلى حساب اللغة وعلى حساب الثقافة والرسم والفنون ستجدُ أن المُهرّجَ هو رجل المجتمع الأول، وصدقني لا أبالغ حين أقول إنَّ القبائل اليوم تدفنُ الشعراء وتُشعل النارَ ثلاثة أيامٍ في مضاربها إذا بُشرت بمهرّج!.

قال شاكر لأمير هذهِ الكلمات مُتحسراً وهما يجلسان لشرب القهوة في الخراب بعد الأمسية، صمت أمير قليلاً متأملاً ثم قال: الجمالُ لا يُخبّئُ نفسهُ يا شاكر، أنت عليك أن تكتب، والكتابة وحدها كذلك لا

تفي بالغرض، أنت عليك أن تُبدع، أن تبتكر لغةً شعريةً خاصةً بك، ثق يا صديقي أنكَ إن استسلمت لهذا الواقع فإنك لن تصل، أنت شاعر والشاعر يُترجمُ لغةَ الصدور من مشاعر وأحاسيس إلى كلمات، ولستُ أرى عملاً من أعمال الدنيا أسمى وأجل من هذا، إذا بقيت مُحبطاً فلن تصل أبداً، ثم مالك ومال الوصول؟ الوصول للناس يا شاكر ليس بيدك هو توفيق خالص من الله، وكما يقولُ الشاعر:

إذا لم يكن عونٌ من اللهِ للفتى
فأولُ ما يجني عليهِ اجتهادهُ!

–لستُ حزيناً على نفسي يا أمير فأنا أكتب لي أنا أولاً، أكتبُ لأتنفس، لأعيش، فالكتابةُ طريقي الوحيد إلى الحياة بطمأنينة، لكنه يؤلمني ما وصل إليه حال الناس مع العربية.
يُشعلُ أمير سيجارتهُ ويهزّ رأسهُ مُتحسراً –صدقت والله.

هنا ودّعت غيداءُ أمينةَ وأغلقت باب البيت وراءها عائدةً إلى غرفتها، إنهُ شاعرٌ إذنْ!؟ واسمه شاكر عربي وله ديوانٌ في المكتبات.
ستنامُ هيَ الآن وسيكون هذا الديوان آخر الأفكار قبل النوم وشراؤهُ أوّل شيءٍ في جدول الغد.

–صباح الخير، بكم هذا الديوان؟

البائع– صباح النور، بمئتي ليرة

– لمَ، سعرهُ غالٍ

– منذ متى لم تشتري كتاباً؟

–لا أذكر يا عمّ

– الأسعار تغيّرت يا ابنتي

–لابأس أريده

– تفضلي

ركبت تكسي وإلى أمينة..

إنهُ آب الشهر الثامنُ في السنةِ الميلادية، أكثرُ الشهور حرارةً وأكثرُها راحةً وأقلُّها استمتاعاً مع أنهُ غالباً يتوافق مع الإجازة السنوية لطلاب المدارس والجامعات لكنهُ شهرٌ حارّ يصعبُ عليك فيه أن تتنزه أو أن تمشي نهاراً في شوارع حمص التي تُعتبر بين محافظاتِ سوريا محافظةً باردة أصلاً فما بالك في غيرها مُحافظة؟ يستعد شاكر بعد أيام للسفر إلى الإمارات حيثُ تعيش عائلتُه ليقضي معهم شهراً كاملاً بعد فراقٍ دامَ قرابة الستة أشهر، ولكنه الآن وقد بقي على سفره أسبوع أراد أن يقضيه في "كَسَبْ" المنطقة السياحية الشهيرة التي تقع على الحدود السورية التركية، إنها جنّةُ الله في الأرض هكذا يقولُ شاكر وهي كذلك

فعلاً، سكانها من الأرمن وهم هادؤون مُسالمون، لقد اعتادوا على أن مدينتهم ليست ملكهم، بل هي أمٌّ لمن لا أم له وبيتٌ لمن لا بيت له، و روحٌ لمن لا روحَ له، إنها مسقط قلوب العشاق ومدينة أشهُر العسل للعرسان، كان شاكر يذهب إلى كسب لأنهُ كان مؤمناً أنهُ كلّما اتسعت مساحة الطبيعة اتسعت مساحةُ الإبداع، إنّ الطبيعة أنثى والأنثى هي مُلهمتُه ولذا كان يتوجبُ عليه أن يبحث عنها وأن يبقى بقربها ما استطاع حتّى يُغذي تجربتهُ الشعرية، ولأنَّ الأسد كما يقول الكاتب أدهم شرقاوي يفتقد مهارة القتال داخل الماء، والقرش لا يستطيع مهاجمة قطة خارج الماء، كان عليه أن يعمل بوصية الكاتب "اكتشف نقاط قوتك ثم اختر البيئة الداعمة لها" إنهُ يعرف نقاط قوتهِ الشعرية جيداً وعليه أن يختار البيئة الداعمةَ لها، لذلك اختار كَسَبْ وأحسن الاختيار.

بينما كان هو في طريقهِ صباحاً إلى كسب كانت هي تطرق باب أمينة

أمينة– من؟

– افتحي

أتفتح الباب ضاحكةً– أسفة قالت لي ماما لا تفتحي للغرباء.

– ما أجمل الماما وبنات الماما.

– اسبقيني إلى الجُنينة ريثما أُعدّ القهوة، وبينما ذهبت أمينة تُعدّ القهوة، ذهبت غيداء تُسلّمُ على شجرة الليمون في الجُنينة.

بين هذهِ الشجرة وبينها علاقةٌ روحية تُشبهُ علاقة البنت بأمها، إنها تشتاقُ لها كمان تشتاق لأمينة، وكلما زارت أمينة كانت تحتضن أغصان الليمون وتشمّها قبل أن تجلس، إنَّ لليمونِ رائحةُ الجنّة، قالت غيداءُ لأمينة وهي قادمةٌ نحوها تحملُ صينية القهوة.

أمينة وهي تضع الصينية على الطاولة– جعلنا الله من أهلها

جلست غيداء وأمينة تصبُّ القهوة وأخرجت الديوان من حقيبتها

أمينة– ما هذا الكتاب؟

–ديوان شعر

أمينة بدهشة جعلت القهوة ترتجّ في يدها –اشتريتهِ!

تهزّ برأسها مبتسمة– نعم

– يا لكِ من فتاة

–لا تُلغّزي بالكلام، ماذا تقصدين؟

بابتسامة– تُفكرينَ بالوصول إليه وإيقاعهُ بكِ.

بانفعال– غبية! كيف أصل إليه وأنا لا أعرف عنه شيئاً!؟

تضحك أمينة بصوت مرتفع قليلاً– على هامان يا فرعون.

تغضب منها غيداء وتُدير وجهها عنها وتفتح الديوان

وتقرأ بصوتٍ يُسمعُ أمينة:

الإهداء

"إلى التي لا أعرفُ اسمها ولا رسمها، فوقَ أيّ أرضٍ كُنتِ وتحتَ أيّ سماء.. أحبُّكِ!".

شاعرٌ يُهدي ديوانهُ الأول لامرأةٍ لا يعرفها!، أيعقل في هذا الزمان أن يكتبَ شاعرٌ لامرأةٍ لم يلتقِ بها؟ أيُّ شاعرٍ هذا، تسألُ غيداء عائدةً بوجهها إلى أمينة.

– وهل تُصدقينَ هذا أنتِ؟

–ما الذي يدفعهُ إذن لكتابةِ هكذا إهداء؟

– إنهُ شاعر يا عزيزتي، شاعرٌ صنْعتهُ الكتابة فممَّ تعجبين؟

تعود برأسها للديوان غير مقتنعة بما قالته أمينة.

تقلبُ الصفحة وتقرأ بعينيها:

"نسيتُ أن أخبركِ.. تأخري ما شئتِ فأنا لا أملُّ انتظاركِ.."

تقلبُ الصفحة لتجد قصيدةً جاء في نهايتها:

حرَّقتِ أحلامي وبعدُ مقاومٌ
لي ألفُ عينٍ في انتظاركِ ساهرة

لا تعجبي.. إنَّ الحنينَ يؤزُّني
وعلى دمي، أمراضُ حُبِّكِ قادرة

بي شوقُ لو غشَّاكِ منهُ أقلُّهُ
لمشيتِ من بيروتَ حتّى القاهرةْ!

ما هذا التناقض– قالت لأمينة.

– أيّ تناقض؟

–هذا الشاعر يُهدي ديوانهُ لامرأةٍ لا يعرفها و يبدأه بقصيدةٍ لامرأةٍ هجرته!

– يجبُ أن لا تستغربي مع الشعراء شيئاً يا غيداء.

ولمْ؟ هل يعشقُ الشاعرُ ألفَ فتاة في حياته!؟.

– لا طبعاً، أظنهُ أراد من هذه البداية أن يُخبر القارئ أنهُ إلى اليوم لم يلتقِ الفتاة التي تستحق حبّهُ، وبالقصيدةِ أراد أن يخبرهُ أنني مررتُ بتجربة لكنني لا أعتبرها حُبّاً.

بتعجب– أووه أمينة، لا يعتبرها حبّاً وهو يقول لها

بي شوقُ لو غشَّاكِ منهُ أقلُّهُ
لمشيتِ من بيروتَ حتّى القاهرة

– الشعراء يا صديقتي مُبالغون دائماً، لا تُصدقي كل ما يقولون، إنهم يقولون ما لا يفعلون وأحياناً مالا يشعرون!.

– حدثي العاقل بما يُعقل يا أمينة

– لم أخرج عن إطار العقل يا غيداء، صدقيني هذه هي الحقيقة، ألم يقل المتنبي يوماً:

كَفَى بجِسْمي نُحُولاً أنّني رَجلٌ
لَوْلا مُخاطَبَتي إيّاكَ لمْ تَرَني!

ألم يقل أبو نواس:

وأخفتَ أهلَ الشركِ حتّى أنّهُ
لتخافُكَ النُطفُ التي لم تُخلقِ!

ألم ندرس في المدرسة قصيدة كُثيّر عَزّة التي يقولُ في مطلعها:

خليليَّ هذا ربعُ عزّةَ فاعقلا
قَلوصيكما، ثمّ ابكيا حيثُ حلّتِ

ومُسّا تُراباً كان قد مسَّ جلدها
وبيتا وظلّا حيثُ باتت وظلّتِ

ولا تيأسا أن يمحو الله عنكما
ذُنوباً إذا صليتُما حيثُ صلّتِ!

المبالغة طبع الشعراء يا غيداء، فلا يغرنّكِ ما قرأتِ

– هذهِ مشكلة

– أين المشكلة؟

–بحسب قولك هذا يا أمينة فأنا لا أظنّ أن امرأةً تستطيعُ العيش مع شاعر، أنا لا أرى هذهِ الأبيات التي ذكرتِ صيغَ مُبالغة، أنا أراها كذباً صريحاً

بابتسامة: أعذبُ الشعر يا غيداء..

بامتعاض– أكذَبُه!.

•••••

يا عزيزي يا عزيزي يقول كارل ساندبرغ: أن تطلب من أحدٍ كتابة قصيدة، كأنك تطلب من سيدةٍ حامل أن تلد مولوداً ذا شَعرٍ أحمر!.

هكذا أجاب شاكر أحد الذين اتصلوا بهِ وهو في طريقه لكَسَب بعد نقاش طويل، وكانَ المتصل أحد الحضور الذين حضروا آخر أمسية له، طلب منهُ قصيدةً يُهديها لحبيبته في تاريخ تعارفهما على أنه من كتبها.

المتصل– ولكنك كما قال لي أحد أصدقائك كتبت عنه وعن حبه أكثر من مرة.

– يا حبيبي أنا كتبتُ لبعض أصدقائي نعم، ولكن هنا يختلف الأمر، فأنا إن كتبت، كتبتُ عن صديق عايشتُ قصته لحظةً بلحظة وتأثرت بها، ثم إنني لا أتنازل عن قصيدةٍ لصديق حتى ينسبها لنفسه، إنها ابنتي، كيف أتنازلُ عن بنتٍ من بناتي!؟.

إنني أستطيع الآن أن أكتب لك، لكن لن يكون شعراً صدقني إنه مجرد نظم.

– لا مانع عندي، فالنظمُ عندك شِعرٌ عندَ غيرك.

بعد سكتة تعجُّب من دهاء المُتصل– لا مانع، متى تُريدها؟

– الخميس إن أمكن فتاريخ تعارفنا يوافق يوم السبت وأريد أن أتدرب على إلقائها

شاكر– أبشر

المتصل بسرور– كل الشكر لك ولن أنسى هذا المعروف منك.

شاكر–أهلاً أهلاً، أهلاً وسهلاً

يُغلق الخط ثم يبحث عن اسم أمير في المكالمات الصادرة ويتصل:

أمير– أهلاً

–أهلاً بك يا صديقي

– أخبرني هل وصلت

–الحمد لله وصلت

– كيف الأجواء؟

– إنها كسب.. لا أستطيعُ أن أصف لك هذا الجمال، هذا الشعور الذي يعتريني يا أمير.

– سأرتبُ أموري وألحق بك في أقرب وقت إن شاء الله

– تعال فمهما وصفتُ لك شعوري فلن أكون مُنصفاً، إنهُ يُشبهُ إلى حدٍّ ما أن تنامَ وحدك وتستيقظ في حضن امرأة!، ويضحك..

أمير يضحك– يا لَحُبّكَ للنساءِ يا شاكر

– ومن لا يُحبُّهنّ

– أنا

يضحك شاكر بصوتٍ مرتفع– صحيح أنتَ لا تُحبُّهنّ، أنتَ تُحبُّ الكذب.

بقي على أذان العصرِ نصف ساعة تقريباً،– ما أجمل أن تنام نصف ساعةٍ في الجنة، هكذا حدّث نفسهُ وهو يستلقي على كنبة "البلكون" الخارجي للشقة التي استأجرها ومن أمامه وادٍ فيه من الخضرةِ ما في السماءِ من الزُرقة.

سينام الآن لكنه لن يستيقظ بعد نصف ساعة كما كان ينوي، هذا الهواء النقيُّ الذي يستنشقهُ الآن، البعيد عن تلوث المدن الكُبرى سيجعله ينامُ حتّى العاشرة مساءً.

وصل أمير في التاسعة والنصف، يأكلهُ قلقه على صديقهِ إنه لا يُجيب على الهاتف منذ ثلاث ساعات وأكثر، توجه مُباشرة إلى الشقة التي يستأجرها شاكر دائما، ظلّ يطرقُ الباب ولا مُجيب.

إدوارد صاحب الشقة شاهدَ أمير فعرفه

–أمير

–أهلاً إدوارد

– أهلاً بك

– إنني أطرق الباب منذ أكثر من ربع ساعة ولا يفتح

– لعلهُ غارقٌ في النوم، لا عليك سأحضر النسخة الثانية من مفتاح الشقة وأفتح لك

– شكراً لك، بانتظارك.

يدخل أمير وبعصبية– قم لا بارك الله في نومٍ كهذا

يفتح عينيه ويغمضها– أراك هنا يا أمير، هل أذن العصر؟، ويتقلّب

– العصر!، القليل من الوقت يا حبيبي ويؤذن الفجر، ألا ترى الظلام من حولك؟

ينتفض من مكانه– أُفّ! كم الساعة!؟

–العاشرة

–تمزح!؟

–لا أمزح

–لاحول ولا قوة إلا بالله كيف نمتُ هكذا!؟

– تبارك الله، الذي يسمع قولك هذا يظنّ أن نومكَ من النوم الخفيف، هذه عادتك مُذ عرفتك لا جديد.

يتركه ويذهب ليقضي حاجته ويتوضأ

•••••

كأنني وردةٌ نامت ملكةً في بستانها الوطن واستيقظت سَبيةً خلف زجاج محلٍ تنتظرُ نهايتها كهديةٍ لمريض في مستشفى، أو إذا رزقت حسن الخاتمة فهدية من عاشقٍ لمعشوقته!.

هل أرسلها؟ قالت غيداء لأمينة

– لا ترسيلها هكذا

–ماذا إذن؟

– أرسليها وكأنّكِ تستشيرينه بها، قولي له مثلاً: صباح الخير أستاذ شاكر أحببت أن آخذ رأيك في هذه الخاطرة ويُشرفني نقدك إلخ..

– وبعد ذلك يا أمينة؟

– لابد وأن يستفزّه الفضول ويسألك من أنتِ وكيف عثرت على رقم جواله.

–وماذا بعد؟

– غيداء!، ماذا جرى لكِ؟؟ هذه مهمتك لا مهمتي، نحن نعمل على جره لفتح حديث، إذا فُتح الحديث بينكما فهذهِ مهمّتك، إيّاكِ أن تقفي، وحاولي من خلال الحديث الأول العمل على حديث آخر حتّى تصلي لما تريدين.

– أشعر بالارتباك يا أمينة.

– أف!، أسبوعٌ وأنتِ تركضين وراء لمى لتطلب من توفيق رقم شاكر لكِ بعد أن رأيتهما معاً صدفةً في شارع الدبلان، وجاءت لمى على

قلبها من أجلك، وهي التي منذ أشهر منقطعة عن توفيق، ومع هذا طلبت منه رقم شاكر بذريعة أن الجامعة طلبت من كل طالبة نموذج شعري حديث لشاعر معاصر من نفس مدينة الطالبة.

–أعرف يا أمينة والله أعرف ولكنني مرتبكة، أنتِ تعرفينني جيداً، تحديت البنات بأنني سأوقعه وبدأن يضحكن، فزاد حبي لاقتحام عالمه وأستطيع ذلك بسهولة، لكن لماذا أنا مرتبكة لا أعلم، صدقيني لا أعلم.

– امسحي الرسالة وارجعي عن غبائك، ما الفائدة إذا كان قلبك كما تقولين لم يتحرك له.

تشرد غيداء بعيداً وتُحدثُ نفسها– يبدو أنني وقعت يا أمينة، وقعتُ بهذا الشاعر صاحب الديوان الذي قرأته سبع مرّات في ثلاث أيام!، وقلت لكِ أنه عاديّ وأنني قرأته مرة واحدة.

– غيداء غيداء أين شردتِ؟؟

لا شيء لا شيء يا أمينة كل ما في الأمر أنني أحب اكتشاف الرجل الغامض، هو أو غيره.

– انزعي هذا التفكير من رأسك ودعي الرجل.

–لالا سأرسل الرسالة

– ألا تخافين أن يكون قرأ هذه الخاطرة من قبل؟ وأن يكتشف أنها ليست لكِ؟.

–فكرتُ في هذا ولا أظنه قرأها، إنها لكاتبة مغمورة بحسب ما قرأت في النت.

– لا أشك أنكِ مجنونة

أضافت قبل الخاطرة ما نصحتها بهِ أمينة: صباح الخير أستاذ شاكر أحببت أن آخذ رأيك في هذه الخاطرة ويُشرفني نقدك.

وأرسلت الرسالة.

الفصل الثالث

"لمحةٌ ثانية"

يمكن للمرأة أن تكون ذكية جدًا
بكل ما يدور حول العالم
إلّا مع الرجل الذي تحب!

– أغاثا كريستي

كانت لمى عائدة إلى بيتها برفقة غيداء لمّا خرج أحدهم فجأةً أمامها يقطع الطريق لتصدمه بسيارتها، كل الذعر الذي أكل قلبها لحظة صدمها الرجل لا يُساوي ذرّة أمام ما جرى لها لمّا نزلت مسرعة لترى حبيبها توفيق يسبحُ في دمائه!.

غيداء رقيقة القلب، الجديدة على القيادة، من أين لها قوة القلب حتّى تحمل الرجل وتضعه في السيارة؟، من ثَمّ تحمل لمى المُغمى عليها كذلك، وتضعها إلى جانبها وتقود السيارة إلى المستشفى، لا يحتاج الأمرُ لكثير تفكير، إنّه الخوف، الخوف صانعُ المُعجزات.

لمى والتي وصلت السنة الثالثة في علم الاجتماع بولاية تكساس بأمريكا قالت لتوفيق في آخر لقاء قبل الغروب ودموعها تُغطّي ملامح وجهها: تذكر دائماً أنكَ أنت من اختار هذهِ النهاية وأنني حاربتُ من أجلك كلّ الأرض ولو كنت أعرفُ أنك ستنسحبُ وأنا في خِضمّ المعارك ما حاربتُ من أجلك بعوضة!.

كتب لها توفيق وهي في أمريكا وكانَ مرّ على حادثة صدمها إيّاه سنة وهي التي أحبّته قبلها بستة أشهر وتركته بعدها بسبعة أشهر رسالة يقول فيها: أكتُب لكِ من هنا، حيثُ لا أنتِ ولا أنا، ليسَ إلا بقايا من لقاءاتنا، لا تسأليني لماذا أعودُ وأمرُّ من هنا، الأولى أن تسأليني لماذا تُلاحقني مقاعدنا؟، أجلسُ عليها وأشربُ القهوة وأنفضُ دُخانَ سجائري في راحةِ يدي، ألأنكِ لستِ معي؟ ولن تصرخي في وجهي لا تفعل هذا أخافُ على يديك؟؟

هطلَ المطر يا حبيبتي..

من سأخبئ في معطفي هذهِ المرة؟ نساءٌ كثيراتٌ أمامي الآن يجرينَ تحت المطر، ورجالٌ كثيرونَ يجلسونَ على المقاعدِ وحدهم مثلي لا يجدون ما يُخبؤونهُ في معاطفهم، أنا الذي كنتِ إذا نزل المطر تنتفضين كالعصفورِ وتهربين إلى صدري وتُخبّئينَ رأسكِ تحت معطفي مُطوقةً بذراعيكِ مُحيطي، أنا الذي كنتُ و ما زلتُ أسمع صوتَ أنفاسكِ في داخلي، هطل المطر يا حبيبتي، إن كل شيءٍ في أعماقي الآن يقولُ للمطر لا تتوقف.

وضع قلمه بعد انتهائه من الكتابة ذلك اليوم ثم شبك أصابعهُ خلف رأسه وأغمضَ عينيه عائداً برأسه إلى الجدار، أينَ هي الآن؟ يمرُّ وجهها ضاحكاً أمامهُ في ذكرى أول لقاءٍ بينهما فتسبقُ دمعتهُ ابتسامته، ينزع يده اليمنى من خلف رأسه ويمسح الدمع دون أن يفتحَ عينيه، والله ما كنتُ أبحثُ عن حبّ، من أين جاءت لا أعلم لا أعلم لا أعلم! يصرُخ بصوتٍ عالٍ تطغى عليه بحةُ البكاء وهو ينزع أصابعه من خلف رأسه ويهوي بمرفقيه على ركبتيه، تسمعهُ أمهُ فتهرع إليه وتفتح الباب خائفةً دون استئذان: ماما توفيق ما الذي جرى لك؟ أخبرني يا حبيبي

يضحك بصوت مرتفع والدمعُ يقف بعينيه: لا شيء حبيبتي لا تخافي

– كيف لا أخاف!؟، أنت تصرخُ وتبكي ماذا بك يا بُني!؟

– لا شيء يا حبيبتي كنت أتدرب على مشهد سأمثلهُ قريباً على مسرح الجامعة.

تُجيبه بحدةٍ في الصوت– توفيق أنا أعرفك عندما تُمثل، قل الحقيقة ماذا بك

– اووه ماما ماما قلت لكِ مجرد مشهد تمثيلي أتدرب عليه.

تصمتُ الأم هنيهةً، لم تصدق ابنها الذي سيتخرج من معهد التمثيل العالي بدمشق بعد أربعة أشهر.

قالت لهُ وهي تغلق الباب خارجةً من غرفته: تسطيعُ التمثيل على كل خلق الله أمّا عليَّ فلا.

كان تعارفهما مُضحكاً، كان في طريقه إلى السوق لمّا رآها تقفُ بانتظارِ تكسي عائدةً لبيتها، اقترب منها كأنه ينتظرُ تكسي هو الآخر، فلما دنا منها وصار بمحاذاتها قال دون أن ينظر إليها: ممكن سؤال يا آنسة؟

التفتت إليه وهو ينظر للطريق– تفضل

بابتسامةٍ لم يُغيّر فيها نظرته عن الطريق– آسف نسيت.

– أتخفف دمَك في هذ الحر؟

– لا، فقط أحببتُ سماع صوتك للتأكد من معلومة قديمة.

تلتفتُ عنه وبغيظ– آه، وتأكدت؟

بدون أن يميل نظره إليها– يبدو أنها خرافة

– وما تقول تلك المعلومة؟

مستمراً بنظره للطريق: تقول أنهُ من العيب أن نقف هنا كالغرباء و المقهى يبعدُ عنّا عشرات الأمتار.

بابتسامة دهشة– كالغرباء!، وتضحك.

مستمراً بنظره للطريق يبتسم– نعم فنحن الآن لم نعُد غرباء وقد صار بيننا خفة دم وحَرّ.. ومعلومة!.

– المعلومة أهم شيء.

يلتفت إليها– هل لهذا البائس الفقير أمامكِ.. حسنة؟

تُديرُ وجهها للطريق وهي تبتسم– ماذا تُريد؟

– فنجان قهوة بعيداً عن هذه الشمس برفقة القمر.

يأكلها الخجل وهي التي لم تعتد هذهِ المواقف وهذه الجرأة من قبل.

يُتابع– يقولون السكوت علامة الرضا

تلتفت إليه– أين يكون مقهاك هذا؟.

كيف مرّت عليهما الساعاتُ الثلاث بهذهِ السرعة لا أحد يعلم، لماذا اختار هذهِ الطريقة في التعارف التقليدية و اللاتقليدية في آنٍ معاً، هل كان يعرفها من قبل؟ هل سبق ورآها؟ يا للحب، يفتحُ عليكَ أبواب الأسئلة بعد أن يبتلع مفاتيح الأجوبة.

تذكرتْ وهما يخرجان من المقهى فأخذت تضحك.

يسألها: لمَ تضحكين؟

أبداً، ثلاث ساعات نتكلم ولم تقل لي ماهي المعلومة، يا لكَ من رجل

يضحك– والله نسيت

–أخبرني هيّا

–تقول المعلومة يا لمى: أن ذوات الجمال النادر كجمالكِ عادةً تكون أصواتهنّ بشعة وقريبة من أصوات الرجال.

– تبتسم

– اليوم تأكدتُ أنها خرافة

تصمتُ بخجل.

تكون لمى أختٌ لغيداء من الرضاع، لما أنهت الثانوية العامة قررت أن تسافر إلى أمريكا لتدرس الجامعة، فوالدها ميسور الحال ويُحبّها حبّاً جمّاً وهي ابنته الوحيدة التي لم يستطع الإنجاب بعدها لأنّ الأطبّاء استأصلوا رحم أمها عقب ولادتها، وكثيراً ما طلبت أمُّها من أبيها أن يتزوج وهو في ثلاثينيات عمره ولكنه كلّما طلبت منه الزواج بغيرها كان يقول لها: كيف يتزوج ثانيةً من يراك كلّ النساء؟، كانت تبكي عندما يقول لها هذا فيضمها ويقول لها قدّر الله وما شاء فعل وأنا راضٍ بقسمتي، وإنّ لمى عندي بأبناء الأرض، لذا كانت طلبات لمى أوامر وكانت ضحكتها تساوي الذهب عند أمها وأبيها، الكثيرات من صديقات لمى كنّ يحسُدنها على ماهي فيه من الدلال والمال، كيفَ حاربت هذهِ المدللة الأرض من أجل توفيق وهي التي لا تُرد لها كلمة عند والديها؟

يقول العقل في هذهِ الحالات أن هكذا فتاة بمجرد أن تقول لأبيها أريد فلاناً فلن يردها، لكنّ المفاجئ في حالة لمى أن والدها رفض توفيق بدون نقاش وبدون أن يسمع منها أو حتى يسمح لها أن تكمل الحديث عنه، ألأن توفيق لا يملك قوتَ يومه؟ ألأنه يدرس التمثيل وخاف على ابنته أن تُكون خُدعت بتمثيلة حب يقوم توفيق بدور البطولة فيها؟ كانت هذهِ الأسئلة هي أكثر الأسئلة التي تردُ على بالها في بداية الأمر، هنا بدأت هي الحرب دفاعاً عن حُبّها لتكتشف فيما بعد أنّ والدها لم يرفض توفيق لعلةٍ فيه إنّما هو يرفض فكرة زواج وحيدتهِ وبُعدها عنهُ جملةً وتفصيلا!، وعليه فإنها عرفت لماذا هو ووالدتها أصرّا على أن يُقيما معها في أمريكا حتى الآن.

اعتبرت لمى رؤيتها توفيق أكثر من مرّة مع زميلته في معهد التمثيل "رؤى" وهما يضحكان تارة ويفطران في مطعم المعهد تارة ويوصلها إلى منزلها تارة أخرى وغيرها من المشاهد، اعتبرته لمى انسحاباً من حياتها وأنه لا يُحبّها بصدق مع كامل إيمانها أنه لا شيء بينه وبين رؤى، لكنه يعرف كم يزعجها هذا ويستفز غيرتها وهي التي لا تملك إلا أياماً بسيطة في حمص وتنتهي إجازتها الجامعية وتعود لأمريكا، كان عليه أن يجعل كل دقيقة في هذه الأيام لها هي فقط، إنه لم يُراعِ شعورها حتّى لمّا هددته بأنها ستنهي كل شيء كان رده مُستفزاً بالنسبة لها.

قال: يا حبيبتي، يا نور عيوني وأحلى شيء في حياتي أنا أعرف أنك مؤمنة بألا شيء بيني وبين رؤى ولكنها الغيرة، إنني أسعى بعدم تنفيذ

ما تريدين إلى تخليصك من غيرتك وإلى أن تصلي لمرحلة يُصبح فيها هذا الأمر طبيعي جداً لأنكِ حينها ستكونين موقنةً كل اليقين أن كل نساء الأرض في عينيّ أنتِ.

كانت هذه شرارةُ القطيعة بينهما.

قالت لها غيداء: لو كنت مكانك ما بقيت معه لحظة هذا التافه!، الذي لا يُقيم لكِ وزناً لا تُقيمي له وزناً.

هبّت لمى في وجه غيداء بغضبٍ لا شعوري: لا تصفيه بهذه الصفات، مهما جرى يظلُّ حبيبي.

غيداء بتهكم– "مرحباً حبيبي".

– أنا الغبية التي حكت لكِ، ألوم نفسي لا ألومكِ أنتِ.

– هوّني عليكِ لو كان يحبكِ أصلاً لما احتجتِ تهديده بالبُعد أولاً، وما كان ليفعل ما فعل ثانياً.

تسكتُ لمى وتنطق الدموع، تأخذها غيداءُ على صدرها حتى تهدأ

•••••

حاولَ توفيق أن يستغل هذه الفرصة واعتبرها الأخيرة، قال لها: لمى حبيبتي أعطيك عشر أرقام لعشر شعراء أعطيكِ روحي، أُعطيكِ كل ما تريدين لكن أرجوكِ لا تكوني قاسية لهذا الحد.

تُغالبُ دمعتها– لو سمحت توفيق إذا كنت تملك رقم هذا الشاعر أعطني رقمه وإلا فسأغلق السماعة.

– لماذا شاكر دوناً عن غيره، أعرف الكثير من الشعراء.

– لا، إنني أريد شاكر بعينه، قرأت له بعض القصائد في النت وأحببت شعره

– أما أنا فما أحببت إلا أنتِ.

تسقط دمعتها الأولى بعد سكتةٍ خفيفة– توفيق، والآه تخنق صوتها

–يا حياة توفيق

تبكي بحرقة وتُغلق الخط.

يُعاود الاتصال بها مرتين وثلاث ولا تُجيب.

في اليوم التالي اتصلت به– مرحبا توفيق

– لماذا أتصل بكِ البارحة ولا تُجيبين؟.

– أرسل لي رقم شاكر وأعدك بأنني سأتصل بك قريباً ونتحدث بما تريد.

كأنّما هطلت غيمةٌ في صدرهِ فأطفأت ناراً لا تطفؤها غيوم الكون جميعاً، طار قلبه فرحاً– دقيقة واحدة ويكون الرقم عندك.

ثلاثة أشهر لم تسمع صوته، –ماذا فعلتِ بي يا غيداء– تقول لنفسها بعدما أغلقت الخط مع توفيق، قالت له سأتصل بكَ قريباً، كانت تتوقع أن قريباً هذه في أحسن الأحوال بعد يومين أو ثلاث، لم تكن تعلم أن صبرها سينفد قبل العاشرة مساءً من نفس اليوم.

تتصل به..

يا لحظكَ التعيس يا توفيق– يقول لنفسه بعد أن شاهد مكالمة لم يرد عليها قبل نصف ساعة عندما دخل يستحم، تكلفة الاتصال بأمريكا ليست بالسهلة خاصة مع شابٍ لا يملك في جيبه إلا ما يُعادلُ عشر دولارات، وفي جوّاله ما يعادل أربع دولارات، يتصل دون أن يُفكر بهذا فترفض اتصاله وتُعيد هي الاتصال، وبصوتٍ خافتٍ يُغطيه الحنين: أهلاً توفيق

– أعيديها أرجوكِ.. أرجوكِ أعيديها ..عَطِشٌ لصوتكِ..

– اتصلت بك كي أفي بوعدي

– افهم يا توفيق أنا لم أشتق لك أبداً واتصلت فقط وفاءً بعهدي.

تضحك– ما زلت لمّاحاً

– ما كنت أصدّق أنّ الأمّ تقسو على طفلها كما فعلتِ.

– العقوق تلو العقوق تلو العقوق والأم تسامح وتغفر ماذا تتوقع في النهاية؟ هل تعيش كل العمر وهي تسامح طفلها العاق؟

– يُفترض أن تكون الأم هكذا وإلا لما كانت الجنة تحت أقدامها، ثم إنّ كلامك يُشعرني أن أمّ هذا الطفل مُنزّهةٌ عن الخطأ، وأن هذا الطفل لم يغفر لها أخطاء كثيرة!.

– لو غفر الطفلُ لأمهِ ألفَ سنة وبرّ بها ألفَ دهر ما وفّاها حقّها.

– صحيح لكن هذا لا يُبيحُ لها قتله

بدهشة– تقتلني وتزعمُ أنني قتلتك!؟

– رمتني بدائها وانسلّت.

– "ضربني وبكى سبقني واشتكى!"

– يضحك

– تصمت

– أحبكِ ولننس كلّ شيء

– لماذا نعودُ يا توفيق ونحن نعرف أنهُ لا أمل من ارتباطنا؟

– لنمُت في ساحة الوصل لا في فراش القطيعة.

•••••

لأيّ حدٍّ من حدودِ الصفاقة وصلنا؟، يُقول شاكر في نفسه وهو ينظرُ لخاطرته التي كتبها على لسانِ إحداهنّ يوماً وهي تأتي إليه على شكل رسالةٍ من رقمٍ مجهولٍ لفتاةٍ مجهولة، تسألهُ بكلّ وقاحة عن رأيهُ بها وتدعي أنها هي من كتبتها!.

كان في شارع الخراب جالساً على كرسيهِ ينتظرُ أمير لما وصلته الرسالة، وضع كأس البابونج جانباً وأخذ يتأمّلُ الرقم ويحدّث نفسه: هل أتصل بها و أهزّؤها هذي الكاذبة؟ ما الذي دفعها لفعل هذا؟ أتصل، لا أتصل، أتصل؟، لا أتصل، قرّر أن لا يتصل لأنه توقع أن تكون المرسلة فعلت هذا تقصداً حتّى يتصل بها، قرر ألا يتصل استفزازاً لها وقال في نفسه، لننتظر أتكتفي بهذا أم ترسل شيئاً آخراً.

خمسُ ساعاتٍ مضت مُذ أرسلتُ الرسالة وأنا أنتظر يا أمينة– قالت غيداء

– لعلّه نائم

–لا ليس نائماً، آخر ظهور له في "واتساب" قبل نصف ساعة

– وتراقبين اتصاله عبر الواتساب.

– طبعاً يا غبية

– وماذا يضع في الحالة؟

–يضع صورةً صُممت لبيتين تحتُهما اسمه.

– أسمعينا

إلهي إنّ لي قلباً هزيلاً
إذا مرت بهِ ذكرى يذوبُ

فكيفَ عليهِ أُبقي يا إلهي
وعن ذكرِ الأحبةِ لا يتوبُ

– الله الله، مذهل
– وكتب في الحالة: اطمئني.. أنا الذي لن تكتبي عنهُ يوماً ليتهُ يقرأ
– يبدو أنكِ تُغامرينَ في الوقت بدل الضائع يا غيداء.
–مجنونة!، تُكلميني وكأنني أحبه ولا أستطيع العيش بدونه، هو مجرّدُ شاعرٍ أغاظتني سارة بعدما تحدثت عنه ساعةً كاملة، وأنهُ ثقيل ولا يلتفت كثيراً للعلاقات النسائية، حسب قول أخيها لها، هذا ما استفزّني يا أمينة وشدني لاقتحام عالمه، كفّي عن مخاطبتي وكأنني غرقى به.
– فهمت، فهمت، لكن من هذهِ الحالة التي كتبها أظن أنه على علاقةٍ بفتاة، وأظنّها كاتبة أو ما شابه ذلك.
– وليكن، مالي وماله أنا؟
أمينة تبتسم بمكر – لا شيء، عموماً هو مجرد ظن.
– لكن لماذا لا يجيب على رسالتي لماذا.
– إذا ظللتِ تفكرين فلن يجيب أبداً، كفّي عن التفكير وسيجيبك.

•••••

الشِّعرُ يحيط بنا في كل مكان، لكن للأسف وضعه على الورق ليس بسهولة النظر إليه. هكذا يقولُ الرسام الهولندي فينسنت فان غوخ، وقديماً قالت العرب "صناعة الشعر" يا أمير، إذن فالشعر ليس بالأمر السهل إنه صنعة لا يتقنها إلا قلّة، أعرفُ الكثير من الأشخاص الذين أبحروا في مراكب الشعر ثم عادوا خائبين، يعتذّر أكثرهم بأنّهم لا شيء أمام عمالقة الشعر، لن أذهب بك بعيداً، أنا مثلاً كم مرة قلت لك إنني كلما قرأت للمتنبي أخاف وأشعر أن الطريق مسدودة أمامي؟، وكم مرة قلت لك ما ترك لنا نزار شيئاً نكتبه، وكم قلت لك أن الجواهري أتعب قرناً كاملاً سيأتي من بعده، كثيراً أليس كذلك؟، إذن فهذا الهاجس يأتي للشعراء الصغار في بداياتهم فإمّا أن يتغلبوا عليه أو يقتلهم، وتصديقاً لكلامي انظر ديوان حذيفة العرجي الأول الذي عنونه بـ قاتللكِ الحب تجد أنه يهدي ديوانه لهذا الهاجس فيقول:

"إلى هذا الذي يعيشُ في أعماقي وكلّما قرأتُ لعمالقة الأدب شعراً ونثراً قال لي أينَ أنت؟ أينَ أنت منهم ومن تكون؟؟... هذا أنا".

كانَ لابدّ وأن أثبت نفسي، أعرفُ أن الأمر ليس بالسهل لكنني غامرت، ومن أجل هذا بدأت كتابة ديوان بعنوان "مالم يقله شاعر" أُعارضُ فيهِ كبار الشعراء، وبه بدأت مغامرتي مع الشعر فإمّا أن تكونَ لي القمة وإمّا القبر.

أمير– قلت لك منذ بدأتَ الشعر إذا سرت في طريقٍ إيّاك أن ترجع عنهُ مالم يكن معصيةً لربك، وكنتُ و ما زلتُ أؤمن أنك ستصل يوماً ما، ليس لأنك صديقي لا، بل لأنني أعرف تماماً أنك لا تسمح للكذب أن يُدنس عاطفتك، ولذلك بدأ الناس يعرفون شعر شاكر لأنّ عاطفته صادقة قريبة من القلب ليس فيها ابتذال ولا تصنع، ابقَ على ما أنت عليه لكن إيّاكَ إن صرتَ مشهوراً أن تنسانا، ثمّ يضحك.

– اغتنم الفرصة وتصور معي الآن، فلن أنظر لك إذا اشتهرت.

أمير مُتذكراً– صحيح لم تخبرن بشيء، قلت لي صباحاً عبر الهاتف أن رسالةً وصلتك وستحدثني بشأنها إذا التقينا

شاكر يهز رأسه– نعم يا سيدي نعم، سارقةٌ لا تُشبهُ السُّرّاق.

– سارقةُ ماذا؟

– سارقةُ أدب، فتاةٌ أرسلت لي صباحاً الرسالة التالية

أعطى شاكر الهاتف لأمير يقرأ الرسالة

أمير بدهشة– ألهذه الدرجة وصلت الوقاحة ببعضهن، أليست هذه الخاطرة ممّا كتبت على لسان جوليا؟

شاكر يهز رأسه– صحيح، هذه إحدى الخواطر التي كنت أكتبها على لسان جوليا بعدما قالت لي هناك كلام كثير في داخلي لا أعرف كيف أخبرك به، وقلت لها أنا سأُخبرني به!، وكل ليلة كنت أرسل لها خاطرة، محاولةً منّي لاقتحام عالمها.

– أعرف هذا، لكن هل كنت تنشرها في النت؟

نعم كنت أنشرها تحت عنوان "قالت لهُ" وكنت أفكر في جمع هذه الخواطر في كتاب ثم عدلتُ عن الفكرة.

– وما الذي يدفع هذه الفتاة لفعل هذا معك؟ ثمّ من أين جاءت برقمك؟

– ليتها عثرت على رقمي العام

– ماذا إذن

– وصلتني رسالتها على هاتفي الخاص، ومن الصباح يا أمير وأنا أفكر من الذي أعطاها رقمي الخاص ولم أصل حتى الآن لنتيجة.

– وماذا رددت عليها؟

– لا شيء

– هل ستتركها هكذا بلا رد.

– سُتبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً

– جيد لنرى.

أصدقاءٌ جيّدون وكتبٌ جيدة، وضميرٌ نائم، تلك هي الحياة المثالية!.

– قالت غيداء لأمينة– غيّر حالتهُ في "الواتساب" الآن ووضع هذه العبارة لـ مارك توين.

أمينة– انتقاؤه مذهل

– هذا ما يهمك أنتِ!.

– أوف، غيداء مالكِ أنتِ!؟

–لا أدري يا أمينة ذهب الصباح وعاد المساء ولم يقل شيئاً عن الخاطرة، كيف يفكر هذا؟، إنني أفكر أن أرسل له شيئاً آخراً.

–لا تفقدي صوابك وتتصرفي بجنون، في هذه الحالات الصمت هو اللاعب الأكبر بينكما.

– وكيف يكون ذلك؟

– لماذا تظنين أنه تقصد ذلك؟ قد يكون قرأ الرسالة وقال لنفسه أجيبها مساءً، غداً، أي شيء، لماذا تفترضين الأسوأ؟، ليكن الصمت لعبتك، وكما يقول المثل "يا خبر اليوم بفلوس بكرى ببلاش"

– سأصبر يا أمينة وما عساي أفعل غير الصبر

– والله إني أراكِ وقعتِ به.

– يا مجنونة كم مرة سأعيد كلامي، مجرد فضول وأنتِ تعرفين فضولي كم هو طاغٍ وفتّاك.

– نعم نعم أعرفه وأعرفُ غيداء جيداً، ولكن انتبهي أن يغلبك قلبك وترسلي له دون معرفتي.

•••••

رنّ الجرس وانتهت غيداء من حصص المعهد الخصوصي للّغات، كانت تدرس الإنجليزية عن طريق هذا المعهد، لم تحضر أمينة هذا اليوم لذلك ملّت غيداء سريعاً، خرجت من باب المعهد وهي تتساءل أين أذهب؟، لا أمينة في منزلها ولست أريد الذهاب لمنزلي، أريد أن أمشي قليلاً في الشوارع، إلى شارع الدبلان إذن.، هذا الشارع الذي يُعنى بكلّ ما تحتاجه النساء من ملبسٍ وزينة، بينهُ وبينَ معهدها ثلاثة شوارع أي ما يعادل سبع دقائق مشياً على الأقدام، كان شاكر في زيارة لصديقه همّام في الدبلان حينها، وهناك جمعتهُ الصدفة بتوفيق المنقطع عنه منذ ما يزيد على أربعة أشهر، جلس الثلاثة في محلّ همّام لبيع الألبسة النسائية.

والله زمان يا توفيق– قال شاكر بابتسامة

توفيق– أسعدك الله يا شاكر واللهِ لا أدري ما أقول لكنّها الدنيا تسرقنا منّا ومن أحبابنا

– صدقت والله

– وأنت يا شاكر أخبرني عنك، صحيح أننا انقطعنا عن الجلوس معاً لكنني أقرأ شِعركَ يومياً أيها العاشق، ويبتسم

– أنت تعرفني جيداً يا توفيق من شارع الخراب للبيت ومن البيت للخراب وبينهما أكون في الخراب، ويضحك

– إذن ما زلت على عادتك، في شارع الخراب مع الشعر

يهزّ رأسه– وأظنها لن تتغير

يقاطعهما همّام بعدما انتهى من بيع زبونته– شاي أو قهوة؟

يجيبانه معاً– كما تحب.

وضع همّام القهوة وجلس وقال: هاتِ ما عندكَ يا شاكر.

شاكر يضحك– ما عندي إلا الشعر وقصص من الأدب

همّام– ذلكَ ما كنّا نبغ، هاتِ آخر ما كتبت

توفيق– هات يا شاكر

يخرج شاكر ورقة من جيبه ويقرأ:

ما أجملَ الحلمَ لولا أنَّهُ وهْمُ

وأعذبَ الشوقَ لولا أنَّهُ سهْمُ

رَسمتُنَا ورَسمتُ الحُبَّ ثانيةً

لو كان..

هنا دخلت غيداء المحل وهي تتحدث بهاتفها الجوّال، يصمت شاكر.

يقول له همّام– أكمل ما بك؟

ترتبك غيداء، لقد عرفته!، إنه هو، وبدون تردد تغلق السماعة في وجه أمينة وتقول– أكمل أستاذ أنا أحب الشعر

مسح الخجلُ ملامحَ شاكر

توفيق تفاجئ– غيداء!

غيداء تلتفت– أهلاً توفيق كيف حالك

توفيق– الحمد لله وأنتِ

همّام يقول لشاكر بصوت منخفض– إنه يعرفها

شاكر بهمس وابتسامة لهمّام– انه لمن المحظوظين

غيداء–الحمد لله أنا بخير

همّام– دعونا نكمل القصيدة يا جماعة

غيداء نعم أنا متلهفة وقد قرأت للأستاذ ديوانه الأول

توفيق– تعرفينه يا غيداء؟

غيداء– طبعاً

ملأ الخجل وجه شاكر فليس هو بالعلم المعروف حتى تقرأ له فتاة بهذا الجمال النادر

همّام– أعِد من الأول يا شاكر

شاكر والخجلُ يستدير على خديه– طبعاً هذهِ القصيدة كتبتها البارحة وهي لا تتجاوز خمسة أبيات، ويقرأ:

ما أجملَ الحلمَ لولا أنَّهُ وهْمُ
وأعذبَ الشوقَ لولا أنَّهُ سهْمُ

رَسمتُنَا ورَسمتُ الحُبَّ ثانيةً
لو كانَ يُرجعُنا أيَّامَنا الرسمُ

تأتينَ كلَّ مساءٍ في مُخيّلتي
طيفاً جميلاً ، محالاً مالهُ جِسمُ

رمَيتِني للظى ليلي ووحشته
ونمتِ أنتِ .. ولمَّا يأتِني نومُ

لو أنَّ في الحُبِّ تشريعاً ومحكمةً
لكانَ بُعدكِ عنّي حدُّهُ الرجمُ!

يصفق الجميع: الله الله..
أنتَ مذهلٌ في الخواتيم– يقول همّام
–لا عدمتك يا همّام، أهتم بالخواتيم لأنها آخر ما يعلق في ذهن القارئ
توفيق– لا حرمنا الله من هذا الجمال
ينظر شاكر إلى غيداء– آمييين
تكتفي غيداء بالتصفيق والابتسامة الكبيرة ثم الاستئذان بالذهاب بدون أي كلمة ثناء على القصيدة محاولةً منها للفتِ انتباههِ، وتنسى أنها دخلت لتشتري، وتخرج.

يخرج توفيق مُسرعاً خلفها– غيداء غيداء

تلتفتُ وراءها– توفيق؟

–غيداء أريدكِ في موضوع لو سمحتِ

– تفضل

–لا ليس هنا، الموضوع يحتاج أن نجلس.

– أعتذر يا توفيق لا أستطيع الجلوس معك أنت تعرف.

–أعرف أعرف، هل أستطيع من خلال الهاتف؟

–لا مانع

يأخذ رقمها ويعودُ إلى رفاقه.

في غيابه قال شاكر لهمّام– من هذه؟ هل هي حبيبته؟

– لا هي أخت حبيبته من الرضاع

– سبحان من وهبها هذا الجمال

مُبتسماً– إذن سنسمع قصيدة عن الجمال قريباً

يضحك – لا ليس لهذه الدرجة

يدخل توفيق وينتهي الحديث.

مع قلّة لقاءاتهِ بالجميلات، كان يعرفُ كيف يحافظُ على توازنه أمام امرأةٍ جميلة.

القليل من الرجال أولئك الذي يستطيعون الحفاظ على توازنهم أمام امرأةٍ جميلة، إنه يعرف جيداً كيف يتعاملُ معهنّ وكيف يجعلُ الكرة في ملعبه هو، لا ملعبهنّ، في ذلك المساء خطرت على باله كثيراً، عفواً هي لم تغب عن باله لكنه ككل لقاءٍ نادرٍ بجميلةٍ ما، قال لنفسه قبل أن يذهب للنوم– لا بدّ ولسوء حظي أن تكون على علاقة حب بأحدهم، فالجميلاتُ لا ينتظرن.

أمّا هي فبعدما تركها توفيق اتصلت بأمينة مباشرة:

أمينة– نعم

– رأيته اليوم يا أمينة رأيته

بنبرة غضب– لماذا أغلقت الخطّ ونحن نتكلم لماذا!؟؟

–أوف دعيكِ من هذا يا أمينة أقول لكِ رأيته

– من هو من؟

–شاكر يا أمينة، الشاعر شاكر

– أين يا مجنونة؟

–أخبركِ عندما أراكِ، هل عدتِ إلى بيتك؟؟

– دقيقتين وأصل البيت

–نلتقي عندكِ إذن.

••••

قال لأمير وهو يُشعل سيجارته– وقعَت في قلبي يا أمير

أمير مُندهشاً– من هي؟

– هذهِ السيجارة، أحبها

– هات ما عندك إنني أسمع

شاكر يضحك– قلت لك هذهِ السيجارة

– على من يا حبيبي، أعليَّ أنا!؟ هات.. قل هيا.

شاكر وهو يضع فنجان القهوة على الطاولة في المسبح البلدي– فتاة رأيتُها اليوم عندما زرت همّام، وينفخ دخان سيجارته

أمير يبعدُ الدخان عن وجهه بكفه– وماذا بعد؟

– لا شيء، سِمعت لي قصيدة

أمير مبتسماً – يا عين يا ليل

– وذهبت

– أين ذهبت؟ وكيف أسمعتها شعراً؟؟

– مجرد زبونة عند همّام، ومن حسن حظي دخلت وأنا أُلقي قصيدتي ولما وقفتُ طلبت منّي أن أكمل وأخبرتني أنها قرأت ديواني وتعرفني

– يا سلام ممتاز

شاكر وهو يُطفئ سيجارته– نسيت أن أخبرك، التقيت كذلك عند همّام "توفيق سرحان"

– أووه مرّ زمنٌ لم أره

– تفاجئت البنت لمّا رأت توفيق، ولمّا خرجت تبعها.

– لماذا؟

– قال لي همّام أنها أختُ لمى بالرضاع، لمى حبيبة توفيق.

أمير وهو يحرك الفحم على رأس شيشته– وأنت

– والله لا أدري لكنها ذات جمالٍ أخّاذ

– يا عمّ أنتَ تحب كلّ من هبّ ودب، ما أن تبتسم لك احداهنّ إلا وتعمّر ألف حبّ من هذه الابتسامة، ثم كالعادة تكون الفتاة على علاقة حب بغيرك، الجميلة يا شاكر لا تنتظرني وتنتظرك، يبدو أنّ قدرنا أنا وأنت مع القبيحات!.

يقاطعهُ شاكر– لا لا يا أمير أنا أرفض هذهِ الكلمة، لا يوجد على وجه الأرض قبيحة، القبيحة في نظرك ساحرة الجمال في نظر غيرك، هذا الموضوع نسبي يا أمير

– كما تريد، الجميلاتُ لا ينتظرننا والقبيحاتُ في أعيننا أنا وأنت يقعن بنا، هل هذهِ الصياغة لكلامي تعجبك؟

يبتسم ويهز رأسه– تعجبني.

–قاتل الله الفلسفة

يضحك شاكر من قلبه– ليست فلسفة، إنه الواقع

–واقع واقع، كما تريد، قم لنمشي فأنا تأخرت.

في صباح اليوم التالي..

أطلَّ وجهها النقيُّ متعرجاً في فنجانِ قهوته، يعبُّ سيجارتهُ ببطء ويترشفُ البُنَّ من عينيها يتأملُها ببطء وهي تتعرج على سطح القهوة، يفوحُ الليمون تارةً حولهُ ويُغني النارنجُ تارة، يُباغتهُ الشعرُ فيكتب:

عينَاكِ بحرٌ لا ضفافَ لسحرِهِ
وأنا الغريقُ وأنتِ أنتِ المَركبُ!

وضع قلمهُ ولم يكمل، أرادَ لهذا البيت أن يكونَ يتيماً كأحلامهِ، وحيداً كسِرِّهِ، إنَّ في داخلهِ صوتاً يُنادي عليه "لا تحاول فشِعرُكَ لا يستطيعُ جمالها" لن يطولَ هذا النداء طويلاً سيحرقهُ شعراً ويكويهِ غزلاً، هيَ الآن تشربُ قهوتها كذلك وإن كانَ هو رفيق النارنج والليمون فهي توأمُ الياسمين يُشاركها اشتياقها للحب، قهوتها، صحوها، ونومها، يُشاركها حتى ابتسامتها ودمعتها، إنَّها تجد في الياسمين الوفاء الذي لم تجدهُ في البشر، هي تسقيه قبلاتها وهو يفوحُ برائحتها وكلاهما يرتدي الأبيض.

•••••

لم يُجب حتّى الآن يا أمينة– قالت غيداء.

أمينة وهي تضع الطعام لقطتها– ما زلت تفكرين

– طبعاً سأظل أفكر، هناك سبب لابد وأن هناك سبب

– فعلاً تأخره يوماً كاملاً لابد وأن له سبب

– ما رأيك الآن؟

– تريدين إرسال رسالة أخرى؟

– لا أعرف والله محتارة

– ماذا سنكتب له مثلاً؟

– والله عقلي مغلق الآن، النعس يأكلني ولن أستطيع النوم دون فعل شيء، فكري أنتِ.

– أقترح أن تنامي الآن فأنا نعست كذلك والساعة الآن السابعة صباحاً

– المهم أن تفكري قبل النوم ماذا سنكتب له– وتنهض عن كرسيها للصعود إلى بيتها.

–أفكر؟، أنا شبه نائمة الآن، والتفكير هو المجهود الأعظم لمن داهمه النعس.

–عندما تستيقظين يا ذكية!.

–سأفعل، اذهبي الآن واتركيني لأنام.

بيتها في الطابق الأول فوق بيت أمينة وله "بلكون" يطلّ على جنينةِ دار أمينة، لذلك كانت تقضي أغلب يومها في بيت أمينة.

يخرجُ شاكر من بيتهِ في تمام الثامنة والنصف، تُقلعُ طائرتهُ في تمام الثالثة عصراً إلى أبو ظبي، آهِ يا أمّي كم اشتقتُ إليكِ، يقول وهو يضع حقائبهُ في التاكسي.

فيروزُ تُغنّي كلمات نزار–

لا تسألوني ما اسمُ حبيبي
أخافُ عليكم ضوعة الطيوبِ

يركب التاكسي– الله الله يا فيروز، الله يا نزار على هذا الجمال، ويبتسم سائق التاكسي.
ينتظرهُ أمير في بيته الكائن في حي "باب هود" ليرافقه إلى المطار.
لحمص سبعة أبواب لأحياء سبعة، وهذهِ الأبواب مشهورة تاريخياً ولكلِّ بابٍ قصةُ تسمية، ومن العجب أنك لا تسألُ حمصيّاً عن أسماء هذهِ الأبواب إلا ويذكرُ لكَ ستّة أبواب وينسى السابع.
نزل أمير وركب مع شاكر وإلى مطار دمشق..
لا يمكن أن تدخلَ مطاراً في العالم أوضع وأحقر من مطار دمشق– يقول شاكر المنزعج من عسكري الأمن الذي قال لهُ بابتسامة الشحّاذ– "وين هدية قبل السفر؟"
أمير– اخفض صوتك يا رجل

شاكر يقف بعربة الحقائب ويلتفت إلى أمير– بالله عليك إلى متى ونحن نسير خلف هؤلاء البقر!؟.

–يا أخي اخفض صوتك وسافر بسلام، ماذا جرى لك!؟

–المطارات هي أوجهُ البلدان، بالله عليك أهذا وجهٌ يُنظرُ إليه– ويشير بيده إلى المطار

–وكأنك تزوره للمرة الأولى.

–آه يا أمير آه، في القلب آهات لا يعلمها إلا الله

أمير– سافر يا حبيبي الآن ويفرجها ربك.

الفصل الرابع

"اللقاء الأول ذاكرةُ الحب"

ثمة بركة في أعماق كل امرأة
كنت أعرف كيف أُحركها

– الطيب صالح/ موسم الهجرة إلى الشمال

أهلاً بالحبيب، أهلاً بشاعرنا الجميل– يردّ توفيق على اتصال شاكر

– أهلاً توفيق أهلا حبيبي، كيف حالك

– بخير حال والحمد لله، لا ينقُصني إلا رؤيتك

– لي الشرف والله ومن أجل هذا اتصلت بك، اشتقنا لك يا رجل

– ونحن بالأكثر والله، متى تُحب أن نلتقي؟

– ما رأيك الليلة؟

– تمام، أين؟

– في المسبح

– وهو كذلك

– لحظة توفيق

– مُرني

– أرجو أن تأتي وحدك فأنا أريدك بشأنٍ خاص

– شأن خاص!، أبشر أبشر من عيوني

– في انتظارك الساعة الثامنة

– إن شاء الله

أرادَ أن يعرف من توفيق ولو شيئاً بسيطاً عنها، لكنّه لم يخرج منه بفائدةٍ تُذكر، الذي يعرفه توفيق عنها لا يزيد عمّا يعرفهُ شاكر، في تمام العاشرة وبعد أن جلس مع توفيق قرابة الساعتين اتصل بأمير ودعاه ليسهر معهما، إنه يجلس معهما لكنّ قلبهُ مشغولٌ باتصال البارحة.

اتصلت عليهِ البارحة وكان يظنُّ أنها لن تتصل به قبل ثلاثة أيام على الأقل وقال ذلك لأمير بعدما ذهبت، قال لهُ: الجميلاتُ يا صديقي لا يتصلن فور أخذهنّ الرقم، لابدّ وأن تُقلّبكَ على النارِ قليلاً، ليُفاجئ باتصالها بعد أخذها الرقم بقرابة الساعة والنصف، وهي التي تحتفظ برقمه من قبل، فتح الخط للرقم الغريب وقال– نعم

غيداء– مرحبا

–مرحبا، من؟

–من؟ يبدو أنّ الكثيرات أخذن رقمك هذا المساء.

–أنت هي؟

–نعم أنا هي

–أهلاً وسهلاً

–أهلاً بك، هذا رقم أمي سأتصل بك من رقمي غداً

شاكر– لا مانع

–مع السلامة

–مع السلامة

التفتَ إلى أمير بعد اتصالها مُبتسماً– هي يا أمير

أمير– قلت لك أنها لن تصبر، وما اقتنعت

– تقول أن هذا الرقم لأمها وأنها ستُعاود الاتصال بي

– كلّهنّ يقلن هذا في أول اتصال، فإذا ارتاحت لك قالت هو رقمي.

غادرَ شارع الخراب ولم يكن يتوقع أنها ستتصل بعد هذا الاتصال، إنها قالت له: سأتصل بك غداً، دخل ليلتها المنزل في الواحدة صباحاً، جلسَ على البلكون وأشعل سيجارتهُ بعدما لبس بيجامته وبدأ يرتشف القهوة.

الله ما أجمل القمر– قال وهو يبحث عن أغنية لأم كلثوم في هاتفه، كان القمر بدراً، بدأت أم كلثوم تُغنّي رائعة جورج جرداق:

هذهِ ليلتي وحلمُ حياتي
بينَ ماضٍ من الزمانِ وآتي

الهوى أنتَ كلّهُ والأماني
فاملأ الكأسَ بالغرامِ وهاتِ

بدأ الكتابة، وماهي إلا دقائق حتّى قطع صوت أمّ كلثوم اتصالٌ من رقم غريب لا يعرفه، ظنّ أنه أحدُ أصدقائهِ فلم يُجب، لا يريد لإلهامهِ أن ينقطع، يريد لما في داخله من شعورٍ أن يهطلَ فوقَ الورق، عاودَ الرقم الاتصال للمرة الثانية فأغلق في وجهه، فعاد للمرة الثالثة، ما هذهِ البشر– قال لنفسه مُنفعلاً وفتح الخطّ–

نعم!؟

غيداء– مرحبا

هدأ فجأةً– أهلاً أهلاً

– أسفة اتصلت بك في هذا الوقت المتأخر

–لالا كنت أكتب وذهب الإلهام الآن، لا عليكِ.

– عرفتني؟

–نعم كيف لا، ولكن لا أعرف اسمكِ حتّى الآن

– اسمي روان

يمدُّ قدميه إلى أعلى ويضعهما على الطاولة: اسمكِ الحركي أم الحقيقي؟– ويضحك.

لقد نسيَتْ أنهُ سمع اسمها من توفيق ذلك اليوم.

– رجاءً لا تقل مثل هذا، أنا لا أكذب وأكره كلّ من يكذب

– جميل، لكن هل هناك أحدٌ لا يكذب؟

– طبعاً يوجد وبكثرة، كم أكره الرجل الذي يكذب

– والله يا عزيزتي إن قلت لكِ أنني لا أكذب فأنا أكذب – ويضحك يُفاجئ بأصوات ضحك لأكثر من فتاة يبدو أنّهنّ يجلسنَ معها.

هل معك أحد؟– يسألها

– لالا أنا في البيت– وتؤشرُ لصديقاتها أن اهدئن.

كذبتانِ في أقل من دقيقة!– قال لنفسه

لتتدارك الموقف تسأله فوراً– أينَ أنت الآن؟

– أنا أجلس في البلكون

–و فيمَ تتأمل، أعرفكم أنتم الشعراء تُحبّونَ التأمل فيما حولكم من تفاصيل.

وهو ينفض رماد سيجارته– في القمر.. أتأمّل ضياءهُ، إنه مكتملٌ هذا المساء

–لابد وأنك رأيتني فيه– وتضحك

–لا، ليس إلا القمر

بدهشة– جاملني على الأقل.

–أنتِ لا تُحبينَ الكذب.

–أمّا في هذه الحالات فأنا أموت فيه.

يضحك.

اتفقا ليلتها على لقاءٍ صباحي في اليوم التالي، نسيَ أنّها قارئة.. نسيت أنّه شاعر.. إذا اتصلتِ القلوب انقطعت العقول.

انتبه فجأةً أنهُ سرح بعيداً عن توفيق وأمير، التفت إلى النادل وقال– الحساب لو سمحت.

يضحك أمير– يبدو أنك لست هنا يا شاكر، سلنا على الأقل إن كنا سنبقى أو سنذهب، أخذتَ القرار وطلبتَ الحساب مباشرةً

يبتسم توفيق– لا عليك يا شاكر، إنني من الثامنة صباحاً على قدمٍ وساق وكنت أنوي الاستئذان والمغادرة.

خرج الثلاثة سويةً، ثم ودعهما توفيق ومشى.

لم تُخبرنِ بما جرى معك في اتصال البارحة– قال أمير لشاكر وهما يركبان السيارة

– غداً أخبرك إن شاء الله، إنني مرهق

– يا لك من وغد، تقذفني للغد، قل الآن ولو رؤوس أقلام

وهو يتثاءب– أنا نعسان، أوصلك الآن واصبر للغد

– كما تريد.

•••••

فتحت باب السيارة ومدّت يدها أمام المكيف قبل أن تصعد.

قال لها مبتسماً– اصعدي إنهُ يعمل

ركبت وخدودها كالدمّ، أغلقت الباب ومشى..

صباح الخير– قال لها مبتسماً

بامتعاض– أيُّ خير؟، ثلاث ساعات وأنا أنتظرك في الشمس يا ظالم.

تسكت سكتة خفيفة ثم بغنجٍ ووجه يشي بالزعل– ساح المكياج عن وجهي

يبتسم– حقكِ عليّ

تلتفت عنه باتجاه النافذة– إذا كان هذا اللقاء الأول بيننا وتركتني في الشمس ثلاث ساعات، كيف ستفعل في اللقاءات القادمة؟

يضحك وهو يُشعل سيجارتهُ– لا تفكري كثيراً في المستقبل، صحيح أخبريني ما اسمكِ؟

تفتح المرآة في الشمسية أمامها وبنصف ابتسامة– ارفع تبريد المكيف

يبتسم– جميلة لا داعي لأن تنظري في المرآةِ كثيراً

وهي تحدق في وجهها بالمرآة– أعرف هذا، لكن أحاول إصلاح ما أفسده انتظارك

ينفخ دخانهُ خارج النافذة ويضحك– ما اسمكِ؟

– لا أحبّه

– الكثيرون لا يحبونَ أسماءهم

– غيداء، اسمي غيداء، اسمٌ قبيح أليسَ كذلك

– هذا وأنتِ لا تُحبينَ الكذب

– أحبّ اسم روان أكثر

يقبل عليها بجسده ملتفتا– يكفي أنكِ حملتهِ ليكون جميلاً

تضحك بخجل– شكراً لك

– أين تودين أن نذهب؟

– لا أحب الذهاب لأي مكان أُفضل أن نبقى في السيارة أينما سارت بنا

– كما تُحبّين

من التاسعة والنصف صباحاً لحظة وصولهِ إليها في حي الغوطة وحتّى الرابعة عصراً، يا لهُ من لقاء! يُقال: "عند اللقاء الأول.. لا تستمع لأيّ أغنية، لا تضع أيّ عطر، وإيّاكَ أن تُحبَّ المكانَ كثيراً، ولا تسأل عن السبب!".

كيف لا نستمعُ لأغنيةٍ في اللقاء ونحنُ اللحن والكلمات؟، كيف لا نضعُ عطراً ورائحةُ الحبّ تضوع من قلبينا، كيف لا نُحبّ المكانَ وهو الذي ولدنا فيه، اللقاء الأول ذاكرةُ الحب، منهُ يبدأ الوجع وإليه يعود، كلُّ شيءٍ كان يرقصُ في عينيهما، حتّى السيارة وكأنها كانت تعرفُ أنها على موعدٍ هذا الصباح بلقاءِ حبٍّ لم يبدأ بعد، فمكيفها المريض الذي عانى منه شاكر أسبوعاً قبل اللقاء تحوّلَ لمكيّفٍ سليمٍ مُعافى كأنهُ خرج لتوهِ من الوكالة!.

لمّا قال لها– سأضع المؤشر على راديو "صوت الحب" والأغنية التي تكون فيه هي إهداء مني لك، قرّر الراديو أن تكون الأغنية– قولي أحبّك! الطفل الذي يقف عند الإشارة يطلب الصدقة والذي طلبت غيداء من شاكر أن يقترب منه لتعطيه شيئاً لله، قال على سجيتهِ وهو يأخذ المال منها– "الله يجوزكن!"، كأنّ كل ما حولهما كان يعرفُ أنّ هناكَ حباً جديداً يولد في هذهِ السيارة، يفضحنا الحبُّ مهما تواترينا به، يأكلنا الحبّ مهما قدّمنا لهُ من تنازلات، يوهمنا أنهُ يمنحنا عمراً جديداً بينما هو يسرقُ منّا أعماراً في الحقيقة، يضحكُ لنَا حتّى نستأنس بهِ، يتقرّبُ منّا حتّى لا نُطيق فراقه، يتودّدُ إلينا حتى نطمئنَّ له، فإذا اطمئننا لهُ وبايعناهُ على السمعِ والطاعة.. أمر بقتلنا!.

قالت لهُ وهي تفتح باب السيارة– سعيدة بلقائك

ضرب جبينه بكفه– يا لله! نسيت أن أضيّفكِ شيئاً

ابتسمت – ألم تكن قهوتك معك لمّا أتيت؟

– بلى

– ألست تشرب منها طوال الوقت

– بلى

– إذا شربتَ أنت فأنا شربت

يبتسم.

تلتفت عنه ثم تُعيد نظرها إليه– لم تُسمعن شيئاً من أشعارك في هذا اللقاء.

– وهل من يراكِ يتذكرُ شيئاً؟؟ ، وهل تُلقى القصائد في حضرة قصيدة مثلك؟ ويضحك

مُبتسمةً تُغلق الباب وراءها، وتلوحُ بكفّها– وداعاً.

ما أصغر الدنيا، يقول لنفسه بعدما نزلت، من كان يعرف أن غيداء التي رأيتها صدفةً في محلّ ملابس نسائية قبل ثلاثة أشهر ستكون إلى جانبي في السيارة اليوم؟

حتى هذهِ اللحظة وبعدما التقاها لا يعرف أن غيداء هي صاحبة الخاطرة المسروقة منه، وأنها هي التي أرسلت له رسالةً أخرى عبر "الوتساب" كتبت فيها: أستاذ شاكر آسفة على إزعاجك، ألهذهِ الدرجة خاطرتي سيئة حتى قرّرت ألا تُبدي رأيك بها!؟.

ما كان ينوي الرد لكنّها استفزّته، أجابها بعد أكثر من يوم على رسالتها الثانية: شكراً لأنّكِ بعثتِ لي بخاطرةٍ من خواطري كنتُ نسيتها، ما الذي حملكِ على هذا؟ اعلمي أن السرقة الأدبية أعظم من السرقة المادية بكثير، أنتِ بفعلكِ هذا تسرقين إنساناً كاملاً، في الحقيقة أنا لا أجدُ تفسيراً لما فعلتِ؟ تسرقين خاطرتي ثم تنسبينها لك ثم تبعثين بها إليّ، في المرّات القادمة قبل أن تسرقي شيئاً حاولي أن تعرفي من هو صاحبه حتّى لا تقعي بما وقعتِ بهِ معي.

وصلتها الرسالة يومها وهي عند أمينة تجلسانِ في الجنينة، بدأت تقرأ وما أن وصلت قوله "تسرقين إنساناً كاملاً" حتّى رمت الجوال أرضاً وغطّت وجهها بكفيّها – يا لغبائي يا لغبائي

تنهض أمينة فزعة– ما الذي جرى لكِ يا مجنونة

–اقرأي ماذا ردّ علي

تأخذ أمينة الجوال من الأرض وتمسح شاشته بيدها وتقرأ.

تأكلها الدهشة فتقول– يااه، أرأيتِ، قلت لكِ انتبهي من مثل هذا قلت لكِ

– تبعد كفيها عن وجهها الذي تغير لونه فصارَ كفصل الخريف– ماذا نفعل الآن، يجب أن نتدارك الموقف بسرعة.

أمينة تكتب بسرعة وترسل له:

من قال لكَ أنني لا أعرف أنّ هذهِ الخاطرة لك، أستاذ شاكر أنا فعلتُ هذا لغايةٍ نبيلة وكنت أتوقع ردّك هذا، أحببت أن أوصل لكَ رسالةً غير مُباشرة تقول: انتبه لإبداعك انتبه لهذا الجمال الذي يستطيع السطو عليه أي لص، أردت أن أقول لك احفظ هذا الإبداع في كتاب ولا تتركه مشاعاً، لا نريد لهذا الجمال أن يُنسب لغيرك أرجوك.

ليس غبياً حتّى يُصدق هذا، لكنه يعرف أن الذكاء في مثل هذا الحالات يكمنُ في التغابي، بعث لها–

أحسنتِ النيّة وأسأتِ الطريقة، لا عليكِ بإذن الله بمجرد عودتي لسوريا سأجمع هذهِ الخواطر فوراً.

كمّ من طامةٍ وقعت بها غيداء وأنقذتها أمينة– تقول غيداء وتضحك أمينة

تتابع– كيف خطرت لك هذه الكذبة يا مجنونة

– لا أعرف وتضحك

– هو خارج سوريا إذن

– نعم

– الحمد لله أنّها عدّت على خير

أمينة– الحمد لله

قررت فيما بعد كسر هذه الشريحة، وأن تنتظر القادم من الأيام.

عادَ بعد أسبوعين إلى سوريا، عادَ وقلبه عند أمّه.

الحياةُ أمّ كما يقولون– قال لأمير وهما يجلسانِ في الخراب أول يومٍ بعد عودته

أمير– صدقت، أخبرني ماذا كتبت في الأمارات

– لا شيء

– لمْ؟

شاكر وهو يضع كأس البابونج أمامه– ما أصعب أن تبدأ الكتابة في العمر الذي يكون فيه الآخرون قد انتهوا من قول كل شيء، هل تتفق مع أحلام مستغانمي في هذا؟

– إي وربي أتفق.

كانت أمينة وغيداء تسيرانِ يومها إلى البيت عائدتانِ من مقهى ميكازا في الحمرا الواقع خلف شارع الخراب، كان اللقاء يقفُ على بُعدِ أمتارٍ منهما، الكثير من الكراسي والطاولات على رصيف الخراب، الكثير من العوائل ومن الشباب، تتبادلان الأحاديث والضحكات، هنا شابٌ يُغازل أمينة، هنا آخر يضحك لغيداء، هنا صديقة قديمة تُسلم، وهكذا..

إنّهُ يجلس على الطاولة أمامهنّ على بعد ثلاثة أمتار، أمينة أمينة قفي لحظة– تقول غيداء

أمينة– ما بك؟

تهمس في أذنها– دون أن ينتبه لكِ أحد، وكأنك تتحدثين معي انظري للأمام الآن، أليس ذلك الذي يلبس الأسود شاكر؟

أمينة تسترق النظر– صحيح هو بعينه

غيداء– اعكسي اتجاه سيرك، نرجع باتجاه ميكازا

– لماذا؟

– تحركي الآن أخبرك بعد قليل

– هيا.

عادتا إلى الوراء قرابة المئتي متر، غيداء مسرعة الخطى وأمينة ورائها تقول– أووه ما بكِ يا مجنونة لماذا تستعجلين هكذا

– دعينا نتوارى قليلاً لنتفق

– أكرهك وأكره خططك الفاشلة

غيداء تضحك

أخيراً كرسيّ فارغ لنجلس هنا– قالت أمينة

– نعم لنجلس

تسكتان برهةً ريثما تلتقطان الأنفاس، ثم تقول غيداء: ها ماذا برأيك نفعل؟ لا أريد تفويت هكذا فرصة

أمينة بانفعال– وماذا يمكننا أن نفعل والشارع مزدحم بالخلق، بين الرجل والرجل خمسة رجال، ثم إنّ أملكِ وأمي في الخراب أنسيتِ هذا

– لا تكوني جبانةً يا أمينة، دعينا نفعل شيئاً، فكري بشيءٍ لا يلفت النظر

تسكت أمينة وتدير وجهها للطريق، كذلك غيداء..

يسودُ الصمتُ لدقائق ثم تلتفت أمينة لغيداء– هو رآكِ قبل هذا أليس كذلك

– رآني

– إذن سيعرفكِ، أو على الأقل لن ينكرك إن لم يتذكرك

– صحيح

– قبل أن أقول لكِ ما أفكر به، إذا نجحت الخطة كم ستدفعين؟

وتضحك

تضربها غيداء على كتفها– أهذا وقت تخفيف الدم، سيذهب الرجل وأنتِ تستظرفين، الساعة الآن الحادية عشرة يا غبية.

أمينة على ضحكتها– اهدئي اهدئي سأخبرك

غيداء تضع مرفقيها على ركبتيها ووجهها في كفيّها وتستمع

– سنمرّ أنا وأنتِ الآن بجانبه هو وصديقه، سأتظاهر بأنني تعثرت وسقطت، سيُهرعُ أحدهما.

تُقاطعها غيداء– يا للغباء المُستفحل بكِ يا أمينة أأقتلُ نفسي!

– مالك يا مجنونة

بعصبية– لو فعلت هذا لاجتمع علينا شارع الخراب كلّه ولظلّ الشارع يتحدث بالفتاة التي سقطت شهراً كاملاً، مجنونة أنتِ، نريد مالا يلفت النظر يا ذكية

– نعم نعم، اسمعي إذن، نمرُّ من أمامهِ هو وصاحبه، ثمّ وكأنّكِ رأيتهِ صدفة فإذا وقعت عينكِ في عينهِ لا تنزعي عينك ثم ابتسمي وقفي والتفتي إليّ بصوتٍ يسمعهُ وقولي: أمينة أمينة وتظاهري بالفرح، ثم تابعي، هذا هو الشاعر الذي اشترينا ديوانه معاً

– وبعد ذلك

– طبعاً لا أدري، بعدها يجب أن تتصرفي بحسب الموقف.

– أخاف إذا وصلنا قربهُ أن تأخذي بالضحك كعادتك وأن تفشل التمثيلية

– لا لا، ثقي بي هذه المرة.

•••••

دخلت غيداء بيتها، كم هو رائع، كم هو رقيق، كم هو ساحر، ليتَ هذا اللقاء لم ينقطع– تقول في نفسها وهي تدخل غرفتها

تبدّلُ ملابسها على عجل لتنزل إلى أمينة

تضربُ الجرس– أمونة أين أنتِ

أمينة التي تنتظر غيداء على أحرّ من الجمر لتعرف نتائج اللقاء، تفتح الباب– الله يسمعنا الأخبار الطيبة

تتفاجئ غيداء بأنّ سارة وبُشرى عند أمينة، تقترب لتُقبل أمينة فتهمس في أُذنها– لا تفتحي الموضوع أمامهنّ

و بصوت مرتفع حتى لا يسمعن همس غيداء تقول أمينة– أهلاً أهلاً غيداء

غيداء– يا سلام بشرى وسارة هنا

تُسلم عليهنّ ويجلسن في الجنينةِ حتّى المساء.

غادرت بشرى وسارة أخيراً، قالت غيداء لأمينة–لا أريد أن أخبرهنّ أنني رأيت شاكر اليوم، يكفي أنني كسبت التحدي وحدثته على الهاتف أمامهنّ البارحة، لا داعي لأن يعرفن أكثر.

أمينة– إذا بدأت الفتاةُ بالكتمان فإنها في الطريق إلى الهاوية

–لا تتفلسفي كثيراً، قومي وأحضري لنا شيئاً نشربه، لأحكي لكِ عن لقائي به اليوم.

– أنا أتفلسف!؟، إذا وقعتِ فإيّاكِ أن تستنجدي بي فلن أُساعدك

– أأهوْنُ عليكِ؟

– نذلة، ستبقين طوال حياتك نذلة وتبتسم، ثم تذهب لتحضر شيئاً يُشرب.

تسألُ غيداء نفسها– ماذا يفعل الآن؟

تتمثلُ عيناه أمامها لتنسيها سؤالها، فتقول في نفسها– ما أجمل عينيه ورمشيه يستحيل أن تكونا مجرد عينين، سحر والله سحر.

تفتح قفل جوّالها وتدخل قائمة الاتصال وتنظر في اسمه، أتصل؟ لا أتصل، سأتصل قبل أن تعود أمينة.

كانَ في بيته يقف أمام المرآةِ يُمشط شعره استعداداً للخروج إلى الخراب أو المسبح البلدي لم تكن خطرت له بعد فكرة أن يتصل بتوفيق، سمع صوت الجوّال على السرير وضع المشط وأخذ الجوّال– مرحبا

غيداء– أهلاً أهلاً

–أهلاً بكِ ويضحك

– وتضحك بعد فعلتك؟ يالك من...، وتسكت

يضحك أكثر– ألا يموتُ ميّتُك؟

– كيف سيموت كيف إنها ثلاث ساعات في الشمس يا ظالم تقفها فتاةٌ ينظر إليها القاصي والداني، هذا يسمعها غزلاً وهذا يضحك لها و هذا يحاول أن يعرض خدماته بتوصيلها حيث تريد، وحده الذي كانت تنتظره لم يأتِ!.

– لا تقولي هذا، قلت لكِ ظرفي، لقد أخذني النوم وغدر بي المنبه لماذا لا تُصدقينني؟.

– وأين أنت الآن؟

– في البيت أستعد للخروج

– إلى أين؟

– إلى الخراب أو المسبح البلدي، لم أحدد بعد

– أيهما اخترت لا فرق، فالنساء كثيرات في المسبح والخراب كذلك

– أف!، ما علاقتي أنا بذلك

– لا أعرف أنت مسكين ولا تهتم للنساء أبداً– وتضحك

يضحك– صدقيني آخر ما أُفكر به

تضحك– صدقتك

– سامحك الله

هنا تدخل أمينة وبيديها صينية فواكه وكأسين من عصير الليمون البارد، تُشير لها غيداء بيدها ألا تُصدرَ صوتاً وهي تُجيبه– سامحنا الله جميعاً

– آمين–

– ها قل لي ماذا فعلت بعدما أوصلتني البيت

– لا شيء، تغديت وزرت بيت جدي ثم عدت لبيتي ونمت ساعتين واستيقظت لأستعد للخروج

بضحكة– يعني استيقظت

– لا، مازالتُ نائماً، ويضحك

– لا أطيل عليك، انتبه لنفسك

– سأفعل، وأنتِ كذلك

– إذا رجعت اتصل بي لأطمئن عليك

– كوني مطمئنة، سأفعل

تنتهي المكالمة وتلتفت لأمينة– لم يكلّف خاطره حتّى ولو بسؤال هل تغديتِ، ماذا فعلتِ بعدما تركتكِ، أي سؤال أي سؤال، فضلاً عن أنه كان من المفروض بعد اللقاء أن يتصل هو بي لا أنا.

أمينة– ومن ضربك على يدك أنتِ وقال لكِ اتصلي بهِ؟

وهي تضع الليمون أمامها– لا أحد، فقط أحببت أن أعرف أين هو الآن، فضول!، ليس إلا.

– سترُك يا رب من هذا الفضول الذي يطاردنا منذ البداية

– ثم لماذا ضحك عندما قلت له اتصل بي فورَ عودتك لأطمئن عليك

– لأنّ طلبكِ غبيٌّ مثلك، في طلبكِ هذا تصريح مُبطّن بالاهتمام، والاهتمام حب.

لا يعجبها كلام أمينة، صحيح أنّها بدأت تشتاق للحديث معه لكنها فعلاً تريد أن تطمئن عليه.

يسودُ الصمت، وتعودُ بذاكرتها إلى الوراء قليلاً..

مرّت هي وأمينة من أمامهِ هو وأمير، ومثّلت الدور الذي اتفقت مع أمينة عليه ببراعةٍ قلّ نظيرها، عرفها فوراً من أولِ نظرة، ماذا يقول؟ ملأ الخجلُ وجهه وبدا واضحاً عليه، تداركت أمينة الموقف– الله ما أجمل ديوانك أستاذ شاكر

شاكر بذات الخجل– الجميل يرى الوجودَ جميلا كما يقول أبي ماضي

أمينة– لو تعرف كم مرّة أعدنا قراءة الديوان أنا وصديقتي، ممتع جداً

يبتسم أمير– كم قلت له هذا ولكنه لا يُصدق

غيداء– التواضع ضرورة أستاذ شاكر لكنّ لنعطِ كلّ ذي حقٍ حقه، أنت مبدع في زمنٍ اللاإبداع

شاكر بخجل واضح– أشكركم جميعاً، وسعيد بكم جداً

غيداء– لا نريد أن نقف كثيراً هكذا أمام الناس، لنا طلبٌ عندكَ أستاذ شاكر

شاكر مُرحّباً– طلبك مجاب تفضلي

– هائمةٌ أنا في عالم الكتابة، هل أستطيع التواصل معك عبر الهاتف وأخذ رأيك من حينٍ إلى حين فيما أكتب، صحيح أني جديدة على الكتابة ولا أرقى لك أبداً ولكنّ رأيك يعني لي الكثير، وأرجوك لا تستحي منّي، إن كنت لا تسطيع قل لا أستطيع.

هنا تدوس أمينة بقدمها قدم غيداء اعتراضاً على آخر كلامها

– لا مانع، يُسعدني، تفضلي الرقم.

كانَ لمّاحاً، قرأ في عينيها ما تُريد، عرفَ أنها تريد رقمه لأجله لا لأجل شيءٍ آخر،يبدو أنها تآلفتِ القلوب والتقتِ الأرواح– قال في نفسه وهي تأخذ الرقم وتذهب.

أمينة تلوح بكفها أمام وجه غيداء– غيداء غيداء أين سرحتِ؟ اشربي الليمون

غيداء تنتبه– لا لا لم أسرح، فقط كنت أفكر ماذا سنفعل في الغد

أمينة تُصفق وتُصفر بتهكم– نعم نعم صدقتك، وتضحك

تلسعها غيداء في كتفها بغيظ– هذهِ اللسعة حتّى لا تضحكي ثانية.

تنفجر أمينة بالضحك أكثر.

دخل منزله وهو يحدثُ نفسه– هل أتصل بها بحجة أنني أفعل ما طلبت "لتطمئن أنني عدت بخير"، لا الوقت متأخر الآن، لا لا ليس متأخراً هي لما اتصلت البارحة اتصلت بعد الواحدة.

يدخل الحمام ليستحم، وبعدها يلبس بيجامته ثم يصلي الوتر ويستلقي على سريره.

ماذا جرى للنوم؟ يسأل نفسه بعد نصف ساعة وهو يتقلب في فراشه ولقاء اليوم لا يفارق رأسه، حاولَ لساعة كاملة لكنه لم يستطع، هكذا هو الأرق يستيقظُ عندما نذهبُ نحنُ للنوم.

قرر أن يقوم حتّى يأتيه شيءٌ من نعاسه الذي طار ما أن استلقى على فراشه، صنعَ قهوةً وخرج إلى البلكون، عادت لهُ فكرةُ الاتصال بها

لكنّ الوقت تأخر جداً، قال له قلبه اتصل بها وبعد أول رنّة اقطع الخط فإن كانت مستيقظة تُعاود الاتصال بك، لم يعجبه رأي قلبه، خشي إذا أخذ بهذا الرأي أن تظُنّ أنه لا يملك رصيداً كافياً.

وكما هو الحبّ دائماً يأتيك بغتة.. أتاهُ اتصالها الذي لم يتوقع، ارتبك لما رأى اسمها على شاشته، إنه شعورٌ لم يعرفه من قبل بالرغم من مروره بالكثير من العلاقات العمليّة والدراسيّة مع فتيات، لكنّ ارتباكه هذا كانَ محفوفاً بسرورٍ لا يعرف مصدره، فتح الخط وبهمس– أهلاً

– حاولتُ النوم لكنني لم أستطع، لماذا لم تُطمئنّي عليك؟

– كنت سأفعل لكنني عدتُ مُتأخراً وخشيتُ أن تكوني نائمة، واستحييت من الاتصال في وقت متأخر

– في المرات القادمة اتصل في أي وقت لا تخجل، أنا أريد هذا، اتصل في أي وقت وفي أي ظرف لا تتردد

– لماذا لم تستطيعي النوم

– لا أعرف، بقيتُ في فراشي أكثر من ساعة وما زلت ولم أستطع النوم.

– مثلي تماماً، حتّى خرجت إلى البلكون وصنعت قهوة وجلست

– أحسدُ القهوة

يتغابى وهو يبتسم– لم تحسدينها؟

– لا دخل لك، هذا بيني وبينها

– وأنا أحسدها كذلك

–لم تحسدها؟

–لا دخل لك، هذا بيني وبينها

بغيظ–شاكر، لا تقلدني

بهمس–هل لشاكر بطلبٍ على أن لا يُرد؟

بدلال–على حسب الطلب

–لا، إذا وافقتِ أطلبه وإلا فلا

–طبعاً أوافق

–أعيدي نُطق اسمي مرة ثانية

بدلال– هذا هو الطلب

–صدقيني وكأنني لأول مرّةٍ في حياتي أسمع اسمي

بغنج– لا تبالغ شاكر

–الله الله ما أعذبه من فمك

يأكلها الخجل– شكراً

–أموتُ في شكراً!.

–ما أحلى كلام الشعراء

–ليس كل الشعراء

–أنت عندي كلّ الشعراء!

لم يتوقع هذهِ الإجابة بعد أقل من ٢٤ ساعة على لقاءٍ أول، سكت قليلاً ثم قال لها– شكراً

–ألن تُسمعني شيئاً من شعرك؟

–أمام صوتكِ لا يحقّ لصوتٍ أن ينبس ببنتِ شفة

–لا لا، أريد أن أسمع شيئاً هيا.

–لا تستعجلي رزقك، قد تسمعين شيئاً كُتب لك أنتِ

تنهض من فراشها– هل أنت جاد!؟

كانت تؤمنُ أنّ الشاعرَ لا يكتبُ لامرأةٍ عابرة، لا يكتبُ إلا لامرأةٍ طرقت باب قلبه على أقل تقدير، أو دمرت النخاع الشوكي لعاطفته كما يقول نزار قباني، ولهذا انتفضت لما قال لها" قد تسمعين شيئاً كُتب لك أنتِ" فرحتها بأن يكتب لها شعراً لم تُلغِ غيرتها التي اشتعلت لمّا قال لها هذا، كيف تجعلُ امرأةً أمامكَ تُسرّ وتغار في آنٍ معاً؟، فقوله " قد تسمعين شيئاً كُتب لك أنتِ" يعني أنه كتب لغيرها، هي تدركُ أنه كتب لغيرها وقد يكون كتب لأكثر من فتاة ولم يقتصر على واحدة، لكنّ غيرتها اشتعلت ضدّهنّ وثارت.

أجابها–نعم أنا جاد، لمَ أنتِ مُستغربة؟

–ليس استغراباً بقدر ما هو سعادة

–لا أعدك، لكنني أظنّ أن قلبي سيكتب لكِ

تنتهز الفرصة– يبدو أن قلبك كتبَ لكثيراتٍ قبلي

–تتحدثين وكأنني زير نساء، على مرّ حياتي لم أعش تجربة عاطفية حقيقة

–نعم والدليل قصائد ديوانك

يضحك فقط

– عموماً هذا أمر لا يعنيني في شيء

فهمَ شاكر ما ترمي إليه فقال– دعينا منه إذن، وغنّي لي.. أودّ استماع شيءٍ من صوتك الجميل

– لا شاكر، إلا الغناء

– لماذا؟

– صوتي مُفزع، وتضحك

– لا لا أنا أحبّ صوتكِ كيفما ما كان، ومازال بها حتّى غنّت له بعد أن اشترطت عليه أن يغني قبلها، وهكذا.. كلمةٌ تسحبُ كلمة، وحديثٌ يجرّ حديثاً وضحكةٌ تبعثُ ضحكة، وأغنيةٌ تلحقُ بأغنية حتّى بدا الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر، قالَ لها– سأغلق الآن لأصلي الفجر.

– وأنا كذلك، اتصل بي إذا فرغت وذهبت إلى فراشك.

صلّى الفجرَ وصلّت وقامَ إلى "البلكون" فرتبهُ وغسلَ ركوة القهوة وفنجانه وذهب إلى فراشه، بدأ النعسُ يهاجمهُ.

اتصل بها فلم تُجب..

عادت هي واتصلت بهِ وهو على وشك النوم

– أهلاً غيداء

– أهلاً بك

– ها ماذا ستفعلين الآن

– سأنتظرك

مُستغرباً– ماذا تقصدين

تضحك– ألا تود رؤيتي؟

– الآن!!

– نعم الآن، سأقف على البلكون وتعال أنت بسيارتك وقف أسفل البناية، الجميع نائمون هنا، والشوارع فارغة.

يبدأ نعسه بالتلاشي– لكن سآتي بالبيجامة ويضحك

– وأنا بالبيجامة أيضاً، تعال

ماهي إلا دقائق لا تتجاوز العشر، حتّى استقر تحت بيتها، رآها تقفُ ببيجامتها ذات اللون الزهري وتلوّح له بكفّها، لم تكن الشمسُ أشرقت بعد، إنما تفتّح لون السماء مُعلناً شروقها القادم، بدأ يحدثها على الجوال وهي أمامه على البلكون: أشرقتِ الشمسُ قبل موعدها هذا الصباح وابتسم.

– ما أشطرك في الغزل

– آه لو أنّ الغزل يُنصفُ هذا الجمال

تسكت خجلاً ثم تقول– أحقاً أُعجبُك

– ما هذا السؤال؟ أسمعتِ بأحدٍ لا يعجبهُ القمر

تضحك– شكراً

– أتمنى ألا تكون مجاملة

– كنتُ جاملتكِ في الاتصال الأول بيننا لو كنت أجامل

–صحيح، قطفت لك قبل أن تصل ياسمينة، انزل من السيارة ستجد باب البناية مفتوح، ادخل وأغلقه خلفك وسأنزل لك.

•••••

قبلَ أن تبدأ الحب.. عليكَ أن تنظرَ وراء النجومِ قليلاً وأن تقفَ أمام بابه هنيهة ثم إذا فتُح لك الباب أطلّ برأسكَ وانظر في الداخل قبلَ أن تخطوَ الخطوةَ الأولى، انظرَ إلى القتلى أمامك، هؤلاء الذينَ ترىَ دموعهم تسيلُ من قلوبهم، ودماؤهم تسيلُ من اشتياقاتهم، تستطيعُ النظرَ أكثر فلا تستعجل خطوتك، قبل أن تبدأ الحب فكر وسل نفسكَ أيَ موتٍ تُحب؟؟ رمياً بالفراق؟ خنقاً بالحنين؟ أم دهساً بالذكرى؟، أم أنّكَ تُفضلُ الموتَ بوعكةِ شوق؟ أعرفُ تماماً ماذا تريد، أفق يا مسكين كل الذينَ تمنّوا الموتَ على صدرِ من يحبّون وجدهمُ الناسُ صرعى إمّا على حافّةِ لقاء، أو على سرير البعد وقد ماتوا بداءِ المسافة، قبلَ أن تبدأ الحب.. انظر لمن اختارهُ قلبك، ماذا هو فاعلٌ بكَ بعد الحبّ؟، النفسُ البشريةُ تتوقُ لما لا تملك وتزهدُ فيما تملك، لا يغرّنكَ تبسمُ الحب لك فإنَّ وراءَ كلِّ ابتسامةٍ للحب طعنة، انتبه لا يأخذنّكَ غدرا فتُلقى من أعلاهُ لأسفله، أنصحك الآن فلن تجد أحداً يأخذُ لك بثأرك، إنهُ القاتلُ بالابتسامة، حتّى تبدأ الحب عليكَ أولاً أن تتعلم الصبر.. لا أحد في هذا العالم يستحقُّ أن تخسرَ قلبكَ لتفوز به.

قرأ شاكر هذا الكلام في منشور "فيس بوك" لأحد أصدقائهِ.

ما هذا التشاؤم– قال في نفسه، ثم كتب يرد:

لا يستأذنكَ الحب، لا يمنحك فرصةَ التفكير، عندما يتغلغلُ فيك يسرقكَ منك، يقضي عليكَ بنظرة!، يجيءُ فجأةً كسكتةٍ قلبية، ومع هذا فإننا الملامونَ لا الحب، كيفَ نطلبُ من الحُبِّ أن يكونَ جميلاً ونحنُ نُقطّرُ قُبحاً؟ كيفَ نطلبُ من الحبِّ أن يستمرّ إلى النهايةِ ونحنُ من يضع الحواجز أمامهُ ومن يعتقله؟ كيف نطلبُ من الحب أن يمنحنا البقاء ونحنُ في كل لحظة نُهددُ من نُحبّ بالرحيل؟ كيف نطلب من الحب أن يهتمّ بنا ونحنُ نتجاهله؟ كيف نطلبُ من الحب أن يكونَ أميناً ونحنُ نخونه صباح مساء؟ لا يُلامُ الحبّ إذا أحرقنا بشوقٍ أو كوانا بحنين، فنحنُ نُحرقهُ تجاهلاً ونكويهِ إهمالا، وكما يقول أبو ريشة " لا يُلامُ الذئبُ في عدوانهِ.. إن يكُ الراعي عدوّ الغنمِ" نحنُ من يستحقُ المحاسبة لا الحب، أيّها الأحبة قبل أن تلوموا الحب لوموا أنفسكم.

تقرأ غيداء لأمينة هذا المنشور بعد أن أخبرها فيس بوك "علّق شاكر عربي عند فلان" وتقرأ لها ردّ شاكر، وتلتفت إليها– ما رأيكِ يا أمينة؟ – الحب.. آهٍ من الحب، وآهٍ منّا نحن، كلاهما مُحقّ يا غيداء، كلاهما مُحقّ.

•••••

إنني مؤمنٌ يا صديقي أنّ الجميلات لهذا الحدّ مُتعبات لأبعدِ حد

–قالها شاكر لأمير في نهاية حديثهِ عن جمالها

ابتسم أمير وقال– أن يستعبدني التعبُ مع امرأةٍ جميلة خيرٌ من أن تؤمّرني الراحة مع امرأةٍ قبيحة.

يضعُ كأسَ الملّيسة على الطاولة– كم مرة سأقول لك الجمال أمر نسبي وأنهُ لا يوجدُ امرأةٌ قبيحة يا أمير؟

–بل القبيحاتُ كُثر، وليس القبح مقتصراً على الخلقة

–دعنا من هذا الآن، اهتمامها يا أمير، اهتمامها بي بدأ يأخذ مساراً من نوعٍ آخر، ماذا تُفسر هذا؟

–الاهتمام هو الحب

–أصغر طفل في العالم يعرف هذا، المشكلة أنني لا أريد الحب

–واضح، ولهذا منذ ثلاثة أيام وذكرها لا يفارق لسانك

–يا أمير يا أمير أنت تعرفني جيداً، ليست أول فتاةٍ في حياتي تمر، لماذا يريدها الحب هي وليس غيرها مثلاً؟

يطفئ سيجارته– لا يستشيرنا الحب يا شاكر، لقاؤك ومعرفتك بالكثيرات لا شيء، الحب حالة خارجة عن إرادتنا نحن، إنها القلوب تفرضُ علينا الحبيب.. في الحبّ نحنُ مُسيّرون، على عكس الحياة فنحنُ مسيّرونَ مخيّرونَ معاً.

يتنهد– لمّا أخذتُ الياسمينةَ منها نظرت في عينيها.. لا أبالغ يا أمير والله لا أبالغ هي أجملُ من الياسمينة بكثير

يضحك أمير.

يغتاظ شاكر– أندم كلما قلت لك شيئاً

أمير على ضحكته– والله إنني سعيدٌ بكَ ولكَ أيها المجنون

•••••

الذينَ لا يؤمنونَ بالحب.. موتوا بغيظكم، تمزّقوا حرقةً، تقطّعوا غيرةً، لا زلتم تؤمنون أن ١+١=٢ بينما نحنُ أثبتنا للعالم كله بالحبّ، وبالحبّ فقط أنّ ١+١=١، روحان في جسدٍ واحد، قلبانِ بنبضٍ واحد، قلمانِ لشِعرٍ واحد، ضحكتانِ لفمٍ واحد، دمعتانِ لحزنٍ واحد، كيف يصير الاثنان واحداً؟، سلوا العشّاق، فهذهِ المعادلات لا يستوعبها علماء الرياضيات.

كيفَ تبكي لحزنٍ ليس حزنك؟ كيف تفرح لفرحٍ لا يخصك؟ سلوا العشاق، كيفَ تمر ساعاتُ اللقاء كجزء من اللحظة!؟، كيفَ تستمر مكالمة هاتفية ساعاتٍ بغير انقطاع ولا ملل!؟، سلوا العشّاق، يا أيّها الذين لا يؤمنونَ بالحب نحنُ العشّاق نعذركم ولا نلومكم، أيُلام أعمى على شيءٍ لم يره؟، موتوا بغيظكم ودعونا نعيشُ بالحب، صِلوا أنتم لأهدافكم وطموحاتكم ودعونا نضيع في الحب دونَ وصول، تمادوا في

الكره ما شئتم ودعونا نُسرف في الحب ما شئنا، نحنُ العشاق مؤمنونَ أنَّ هذا العالمَ الذي يضجّ بالدماء يحتاجُ لجرعة حبٍّ يومية على الأقل ليستمر على قيد الحياة، هذا العالم الذي ملّ منه الموت، هذا العالم الغارقُ في الكرهِ وقواربُ الحبِّ تقفُ مُهملةً على مينائه.

الذينَ لا يؤمنونَ بالحب.. جرّبوا النومَ ليلةً في أحضانِ القمر، جرّبوا أن تستيقظوا صباحاً على ضفافِ الشمس، جرّبوا الطيران بغيرِ أجنحة، نحنُ العشاقُ نعرفُ جيداً أنّ الحبَّ ليسَ أمراً هيّناً في كوكبٍ طاعنٍ بالكره، وأنهُ يُشبهُ الإبحارَ بسفينةٍ مُهترئةٍ على اليابسة، لكن إذا أردتَ أن تشعرَ بقيمةِ الشيء عليكَ أن تحصل عليهِ بالتحدي، ما أسخفَ الحبَّ السهل، يا أيُّها الذينَ لا يؤمنونَ بالحب جرّبوا أن تكتبوا قصيدة، أن تقرأوا قصيدة، فقراءةُ قصيدة حب واحدة تكفي لتطهير آلاف القلوب من الكره، يا أيُّها الذينَ لا يؤمنونَ بالحب وفي صدورهم مُضغةٌ يدّعونَ أنها قلب.. موتوا بكرهكم!.

سبعة عشر يوماً ولقاءاتٌ ثلاث.. والحبُّ ينشرُ عساكرهُ في قلبيهما ويُخططُ لاقتحامِ روحيهما وهما يعلمانِ أنهما قابَ قوسين أو أدنى من سقوطهما عاشقين، لا، فالحقيقة هي أنّهما سقطا عاشقين من اللقاء الأول، ولكنّ الحبّ كان يخطط لإعلانِ سقوطهما أسرى في يديه أمام العالم.

كانت الساعة الرابعة والنصف عصراً لمّا وقفَ بسيارتهِ في حيّ الوعر،
فتَحت البابَ وصعدت مُبتسمةً– مرحبا
مُبتسماً– أهلاً وسهلاً
تُغلق الباب وتلتفت نحوه– ما أجملَ المقال
تتضاعفُ ابتسامته– يا لحظّ المقالِ وكاتبه
–الذينَ لا يؤمنونَ بالحبّ..
–موتوا بكرهكم
تبتسم– الله.. من أين لكَ هذا النثر يا شاكر من أين؟
وهو يخرج سيجارةً– من عينيكِ، ويضحك
تلسعه بغيظٍ على كتفه– لا تهزئ لا تهزئ
يصرخ آه– آلمتني يا مجنونة، والله لم أهزئ لكن ضحكت لأنك لن تصدقي هذا
تلتفت عنه إلى نافذتها– لو كنت صادقاً كتبت فيّ شيئاً ولو بسيطاً من عشرات القصائد التي كتبتها لغيري، لنا مدة ونحنُ أصدقاء والتقينا أكثر من مرة ووعدتني في اتصالٍ ولم تفِ بوعدك.
يضحك– أنا لم أعدك، لكن قلت ربما
–كيف تريد أن أصدّق إذن أنكَ جئتَ بمقالك من عينيّ كما تزعم
–وهل يجب علي أن أكتب فيكِ قصيدة حتى تصدقي؟
–طبعاً.. هنا أوقنُ أنني صرتُ مصدراً لإلهامك
–أغمضي عينيكِ إذن

مُستغربةً– لمَ؟
–أغمضيها ولا تسألي، فقط استمعي
تُغمضُ عينيها ويبدأ:

مُنذُ اتصلتِ وغنّينا معاً طربا
إنّي أحاولُ من شوقي لكِ الهربا

شيءٌ إليكِ غريبٌ صارَ يأخُذُني
وكلما بعُدت أميالُنا .. اقتربا

هذا الشعورُ قديماً كانَ ينزلُ بي
أيّامَ كان الهوى مثل المدى رَحِبا

شهيّةٌ أنتِ كالحلوى وفاتنةٌ
كالياسَمينِ ، ومثل الطفلِ إن غَضِبا

ماذا تُسمّينَ هذا الشيءَ غاليتي
مُنذُ اتصلتِ وبي ما يُشببهُ السُحُبا

برقٌ ورعدٌ وأمطارٌ تُباغتُني
ماذا تقولينَ والصحرا غدت عِنبا!

يبدو وقعتُ بفخِّ الحبِّ ثانيةً!
لقد كتبتُ .. ومن عاشَ الهوى كتبا

يقول لها وهو يطوي القصيدة بعدما أنتهى مُبتسماً– إيّاكِ أن تُصدقي كلّ ما يقوله الشعراء.
وكأنّ الدمعَ كانَ منتظراً أن تفتحَ عينيها لينهمر، بدأت بالبكاءِ ووجها يضحك، خافَ شاكر واقترب منها– لماذا تبكين؟.
تلتفتُ عنهُ إلى نافذتها– لا شيء لا شيء وتمسح بكفيها دموعها
–كيف لا شيء!؟ لماذا تبكين أريد أن أعرف الآن
تلتفت إليه– فرحاً، أنت لا تعرف ماذا فعلت بي الآن.. أريد أن أطير وتضحك بينما الدموع تسيل.
–لا تطيري أرجوكِ.. وأُعيدُ عليكِ: لا تصدقي كل ما يقول الشعراء
–لماذا تريد أن تفسد فرحتي بالقصيدة، لا دخل لك أنتَ بيني وبينها أصدقها أو أكذبها أن حرة
يضحك– كما تريدين..

الفصل الخامس

"ما بعد الفراق"

بقلم شاكر عربي

وإن هُجرتَ على ما فيكَ من كرمٍ
فالناسُ تتخذُ القرآنَ مهجورا

– زاهد القُرشي

لا أستطيعُ أن أتخيّلَ يوماً يذهبُ عني فيه الشِعر، فالحرفُ رئتي ولستُ أدري كيفَ يتنفسُ الذينَ لا يكتبون، لا تُقاربي الشعرَ فيكِ، إنني مُستعدٌ للتخلي عنّي لأجلِ الشعر، القصائدُ بناتي، ومن الطبيعيّ جداً ألا تتشابه بناتُ الرجل، هذهِ جميلة، تلك عادية، هذه قصيرة، تلك طويلة، هذه نحيفة، تلك سمينة، هذهِ بارّةٌ بأبيها وتلك عاقّة، أمّا في عين الأب فيتساوينَ جميعاً، فطرةُ الله التي فطر الآباء عليها والأمّهات كذلك، كل قصيدة كتبتها فيكِ هي ابنتُنا معاً، عليكِ أن ترضعيها اهتمامكِ، وألا تغاري منها، وأن تُحبيها أكثرَ من أبيها فقط لأنها منه.

أجلسُ الآنَ وحيداً في الخراب، أتذكرُ هذهِ الكلمات يومَ قلتها لكِ ونحنُ أمام بيتكِ صباحاً، أجلسُ الآنَ في الخراب وكلّ ما حولي يُنكرني بَعدَكِ، الهواءُ يهربُ من أمامي، الثلجُ لا يتساقطُ فوقي، بائعُ القهوةِ أعطاكِ عمرهُ ورحل، الشتاءُ لم يُبقِ أحداً في الشوارع، أشعرُ بالحرّ والبردُ يخترقُ عظامي! أينَ أنتِ الآن؟ أمرّ ببيتكِ وأقفُ كلّ صباحٍ من بعيدٍ أنظرُ إلى بلكون غرفتك ولا جديد، هذا هو الشهرُ الرابعُ بعد الفراق، كم شهراً أحتاجُ ليتخلّص قلبي منكِ؟ كم سنةً؟، كم دهراً أحتاج، وأنا أعرفُ جيداً أنّكِ وشمٌ في القلبِ لا يزول، ليس للشعراءِ حظّ، احفظي هذا عني، هل تذكرين يومَ قلتُ لكِ هذا؟، هل حفظتهِ عني؟

أظنكِ نسيتِ، لكنني لم أنسَ.

قلتِ لي يومها– الشعراء هم أهل الحظ إن لم يكونوا الحظّ نفسه، ألا يكفي أنهم يستطيعونَ ترجمةَ عواطفهم إلى حروف، بينما ملايينُ الناس يموتونَ صمتاً؟

قلتُ لكِ مُبتسماً– لو كانَ للمتنبي شَعرة من حظ ما قُتلَ بسبب ضُبّة وأمّهِ الطرطبة!، على الأقل كانَ قتلَ بشيءٍ أعظم، أو كانَ نال الضيعة التي طلبها من كافور وقدّم مقابلها قصيدةً لو قالها بي لخلعتُ له ملابسي!، وضحكتُ ثمّ تابعت: لو كانَ لناجي حظ يا حبيبتي ما ماتَ وهو يشحذ اللقمة، فعلى أقل تقدير كانَ عرفه الناس قبل موته.

ولمّا عرفه الناس بعد موته عرفوه فقط لأنّ أم كلثوم غنّت لهُ "الأطلال"، ويا ليتها غنّتها كما هي، بل أضافت لها من قصائدهِ ما أعجبها وحذفت مالم يعجبها، "سطو غير مُسلّح يعني".

– وضحكتُ فقاطعتِني وقلتِ – وأنتَ يا شاعري أنا.. ألستَ محظوظاً؟

ابتسمتُ وقلت: فقط لأنني عرفتك.

ترى هل ما زلتِ تغارينَ من قارئاتي؟ هل ما زلتِ تدّعينَ أنّكِ من صنَعني وجعلَ مني شاعراً؟ تُرى هل إلى الآن تدّعينَ أن شُهرتي الشعرية هيَ السببُ الرئيس بين أسباب كثيرة أخرى في فراقنا؟ لا أعرف هل هي الصدفة التي جعلتني أكتب هذه الكلمات الآن وأنا أستمع لأغنية "فات المعاد"، أم لا، إنّ كلّ ذكرى تسألني الآن: هل فاتنا قطار العودة؟.

هناكَ أمل، قلبي يقول لي هناكَ أمل وأنا مؤمنٌ أنّه لا أمل، لكنني في الحب أُصدّقُ قلبي وهذا ما أوصلني لما أنا عليه الآن من الخيبة، آهِ يا حبيبتي "كم بنينا من خيالٍ حولنا"، آه "كم مشينا في طريقٍ مُقمرٍ" كانت نهايتهُ الفراق، فلماذا؟، أخبريني لماذا "جحدت عيناك زكيَّ دمي" لماذا وأنا الذي كنتُ "أغارُ من قلبي إذا هامَ لِلُقياكِ"، أنا الذي كنتُ "أحبك حباً لو يفيض يسيرهُ.. على الخلق مات الخلق من شِدة الحب" لماذا؟ وأنا الذي أحببتك بكلّ جارحةٍ من جوارحي "وأنت الذي اخلفتني ما وعدتني.. وأشمت بي من كان فيك يلومُ"، أسألكِ الآنَ بكلِّ ما في القلبِ من حنين، ولا تجيبينني "كأنَّ جوابَ مسألتي حرامُ"، هل تذكرين يا حبيبتي؟، هل تذكرينَ كم مرّةٍ قلتُ لكِ فيها "سوفَ تلهو بنا الحياةُ وتسخر"، ها قد صدقَ حدسي، وسخرت منّا الحياة سُخريةً ما سَخِرتها من عاشقينِ قبلنا.

لقد قررتِ أننا يجب أن نتوقف عن الحب، ولا أعلم كيف اتخذتِ هذا القرار الذي لا نستطيع لا أنا ولا أنتِ تنفيذه، هل كانت بدايةُ الحبِّ بأيدينا حتى تكونَ نهايته كذلك؟ كنّا قبل قرارِكِ المشؤومِ بأسبوعينِ نجلسُ في المقهى، وجهي لوجهكِ وأظهرُنا للكون، لم نكن نعلم أننا بعد أيام سننتهي، كنّا وقتها على أتّم استعداد لمواجهة الدنيا بما فيها بحبنا الكبير، كنتِ تبتسمينَ ابتسامةً كلّها جدّية، لا أعرف كيفَ كنتِ تتقنينَ ابتسامةَ الجديّة تلك، كنتُ حينها مسترسلاً بالحديث عن مثقفينا، آه

من مثقفينا يا غيداء، كم حدثتك عنهم، وأذكر أنني كنتُ أقول لكِ حينها:

لقد ابتُلينا بمثقفينَ من شُعراءَ وكُتّابَ وغيرهم ممن يظنونَ أنّ المُثقفَ لا يكونُ مُثقفاً إلا إذا تجرّأ على الذات الإلهية، وفتواهم جاهزة طبعاً، فهم يُلصقونَ ذلكَ بظهرِ "المجاز" ويظن أحدهم أنه كلما استخدمَ مفردة " إله" أو "آلهة" بأيّةِ صيغةٍ كانت، صارَ مُثقفاً وأبو المثقفين أيضاً، والدنيا كلها تعرف جيداً أن مُفردة "إله" لا تحتمل إلا معنى واحد وهو "المعبود بحق"، وليسَ هناك معبودٌ بحق إلا الحق سبحانه، لا أكاد أقرأ رواية إلا و تعجّ بالتعرضات للذات الإلهية بذريعة الأدب، حوارات مفتوحة مع الرب سبحانه، يحاور فيها الكاتب ربّهُ ويعترض عليه، ويغضب منه وكأنه زميله في المدرسة!، تعالى الله عمّا يقولونَ علوّاً كبيرا، إنهم يفعلونَ هذا ليقالَ عنهم "مثقفون"، تُرى ما فائدة أن تكونَ عند الناس "مُثقف" و عند الله مُتخلّف؟؟، ما فائدة أن يمدحكَ الناس ويلعنك الله.

كذلك يا عزيزتي على من يريد أن يكونَ مُثقفاً في زماننا أن يستشهد دائماً بأقوال فرويد ونيتشة وزوربا، كأنّ الأرض لم تعرف غيرهم، وفي الحقيقة يا عزيزتي يجب أن تعلمي أن كل رواية حديثة مُكررٌ فيها أقوال هؤلاء الثلاثة هي رواية فارغة غالباً، يجب أن لا تُضيّعي وقتكِ في قراءتها، وعليكِ أيضاً ألا تثقي كثيراً بكُتّابنا الشباب الذينَ يستشهدون بغير هؤلاء الثلاثة من كُتّاب الأوربيين، نحن الآن في عصر القص واللصق، يدخل –الروائي العظيم– إلى جوجل ويختار مقولة تُناسب

سرده ويُلصقها وانتهينا، فلو سأله صحفيٌّ ما، يوماً ما، عن هذا الكاتب وماذا قرأ له، سيواجه السؤال بسؤال على طريقة الجبناء ويتنصّل من الإجابة.

قاطعنا النادل وهو يضع القهوة ويبتسم، كم كانَ قدَرُ هذا النادل جميلاً فرأى وجهكِ يوماً؟

قلتِ: أولاً وأخيراً لا يصح إلا الصحيح، والتاريخ يكشفُ الحقيقيَّ منَ المزيّف.

أخذتُ رشفة قهوة من فنجاني وأخرجتُ سيجارةً وعدتُ بظهري للوراء وقلت: الدينُ لا يقفُ في وجهِ الثقافة أبداً، ولا في وجهِ أهلها، إذا تخلّى المُثقّفُ عن دينهِ على الورق فعلينا أن لا نسأل بعد ذلك عن تخليهِ عن المبادئ والقيم، الذي لا يُقيمُ لدينهِ وزناً، لا يُقيمُ لشيءٍ وزنا.

كانَ قرارِكِ بالتوقف عن الحبّ، مضحكاً جداً، ومؤلماً جداً، لقد كنّا طوالَ الأشهر الخمس من حبنا سَمْناً على عسل كما يقول المَثل، فمن كبّ العسلَ على الأرض، وصبَّ السمنَ على النار؟ نحن؟ نعم نحن، أخطاؤنا، مُكابرتنا، السماح لكل الناس بمعرفةِ أسرارنا، تراكمت الأخطاءُ يوماً بعدَ يوم، وشهراً تلوَ شهر، وكانت العلاقة لا تزال في مجال التَحمّل، وفي مجال التدارك، حتّى خرجتُ قاصداً بيتكِ صبيحةَ ذلكَ اليوم، ذلكَ اليوم الذي لا أنساهُ في حياتي، لأنه اليوم الذي عرفتُ فيهِ ما معنى أن يعيشَ رجلٌ بينَ فكّي كمّاشة، حيناً من الوقت، واخترتُ مُفردةَ كمّاشة هنا عِوضاً عن "خائنة" لأنّ مُجرّد رؤية هذهِ المُفردة يُشعرني

بالقرف، إن كل شيء في هذه الدنيا قذر، يُمكن أن يكون في قمة الطهارة إذا قارنته بالخيانة، في صبيحةِ ذلك اليوم، قررتُ أن آتي إلى بيتكِ عسى أن أراكِ كما كنتُ أراكِ واقفةً على البلكون دائماً ونتحدث، في صبيحةِ ذلكَ اليوم، رأيتُكما معاً بعيني التي تمنيتُ لو كانَ أكلها الدود قبلَ أن تراكما معاً، ما أسخفني! خرجتُ مُبتسماً لأجلِ صُلح، وعُدتُ مُضرجاً بالخيبة، كنتِ إلى جانبه في السيارةِ تضحكين، كانت السابعة والنصف صباحاً، موعدكِ اليومي الذي تتصلينَ فيه، كنّا على قطيعة قبل أن أراكِ معه بثلاثة أيام، وكنتُ قاصداً بيتكِ حتّى أُراضيك، فأنتِ لا تُجيبينَ عليّ منذ ثلاثة أيام، لم تكن طعنةً في الظهر أبداً، كانت طعنات في القلب، لا أعرفُ تماماً ما الذي جرى لي، مررتُ بجانبكما نظرتُ وكذّبت عيني، اقتربت بسيارتي من سيارتهِ أكثر، إنكما تضحكان! بدأ الجنونُ يسيطرُ عليَّ، ضغطتّ برجلي على دوّاسةِ البنزين وكأنّها هي من خانني، شيءٌ جعلني أتخيلها أنتِ، إنّ أقل عقوبة يمكن أن ينالها خائن هي الموتُ دعساً! وأخذتُ أقودُ بسرعةٍ جنونية، ولكن إلى أين؟، لا أعرف.. وبدأتُ أصرخ في السيّارة بصوتٍ عالٍ كالمجانين: لا تكذبي..

إنّي رأيتُكما معا

فدعي البكاءَ.. لقد كرهتُ الأدمعا

ما أهونَ الدمعَ الجسورَ إذا جرى

من عينِ كاذبةٍ.. فأنكرَ وادّعى

كانَ حضور "كامل الشناوي" وقصيدته تلك طاغياً صبيحةَ ذلكَ اليوم، وصبيحة كل الأيام التي تلت ذلك اليوم، صحيح أنني لم أتطرق في شعري لخيانتك أبداً، لكنّ هذا لا يعني أبداً أنني نسيت، الصحيح أنني تناسيتُ قاصداً، فأنا لا أريدُ للحبيبة التي كتبتُ لها غزلاً ما كتبه شاعرٌ لحبيبةٍ قبلي، أن أختم ديوانها بخيانة، أنتِ تعرفين جيداً مدى اشمئزازي من الخيانة، فلذلك اخترتُ أن أُبهِمَ النهاية في الديوان، ليعلم الناس أننا افترقنا، أما لماذا افترقنا فلا دخل لأحد، ذهبَ ذلك اليوم وأخذَ معهُ كلّ شيء، لم يدع لي سوى حزني وذكرى أَحَدُّ من السكّين، هربتُ إلى تُركيا، واخترتُ مدينةَ بورصة وجلستُ فيها شهراً كاملاً، كنتُ أظنُّ أن السفر يُنسي، لكنني اكتشفتُ أنّه على العكس تماماً، لقدر هربتُ من الأماكنِ التي كنّا نلتقي بها لأقع فيها، لم أكن أعلم أنّها محفورة في القلب والهربُ منها سيكونُ إليها، كم كانَ نزار صادقاً يومَ قال:

كم مُبحرٍ وهمومُ البرّ تسكنُهُ
وهاربٍ من قضاءِ الحُبّ، ما هربا

نعم يا حبيبتي نعم،أنا الذي سافرتُ لأبتعدَ عنكِ ولما وصلتُ رأيتُ طيفكِ بانتظاري في المطار، في الحقيقة لا أعلم ما الذي جعلني أهربُ لتركيا بالذات، لمَ لمْ أسافر للإمارات حيثُ عائلتي مثلاً؟، يبدو أنني

كنتُ أهربُ حتى من نفسي، ظننتُ أنني ولهول صدمتي بكِ سوفَ أنساكِ بسرعة تفوقُ سرعةَ الضوء، لم أكن أعلم أنّ جرحكِ هذا سيستمرّ نازفاً في قلبي حتى اليوم، وقد مرّ عليه أربعة أشهر، تُصدقين؟ كنتُ مرةً في أحد المحلات التجارية الكبيرة أنتظرُ دوري لدفعِ قيمةِ ما اشتريت وكان يقفُ إلى يساري شاب أسمر طويل رياضي القامة يرتدي قميصاً أزرقاً وضع أغراضهُ بما فيها هاتفهُ الجوّال أمامه على طاولة المحل ليخرج النقود استعداداً لدوره ، رنَّ جوّالهُ " غيداء تتصل بك" نظرتُ إلى شاشةِ جوالهِ بطريقةٍ حمقاء ما كنتُ لأنظر بها لو كنت بكامل قواي القلبية ونفسي تقول لي " غيداء غيداء في كلِّ مكانٍ غيداء .. يا الله!"

سألني وشَرارُ الغضب يقدحُ من عينيهِ–

إلى ما تنظر؟

فأجبتُهُ بدونِ تفكير– ماتت

قال– من هي؟

قلت– غيداء.. غيداء ماتت

بزفيرٍ طويل قال في آخرهِ– الله يشفيك..

نعم ظنَّ أنَّني مجنون، أسف هو تيقن أنني مجنون لم يكن مجرَّد ظن، ومن غيرُ المجانينِ يفعلُ ما فعلت؟.

قررتُ أن أقنعَ نفسي بموتكِ فهذه هي الطريقة الوحيدة التي تساعدني على نسيانك، وفشلتُ، وحاولتُ وفشلت.

لماذا اتصلتِ بي صبيحةَ ذلك اليوم؟، هل رأيتِ سيارتي بعدما تجاوزتُ السيارة التي تُقلّك أنتِ وحبيب القلب؟، هل كنتِ تريدينَ تبرير فعلَتك؟، أم كنتِ تريدينَ اغاظتي؟، لا يهم كثيراً، كان ذلك اليوم قبل أربعة أشهر وستة أيام و تسع ساعات من الآن.

جلستُ في مدينةِ بورصة شهراً وزيادة، كنتُ أخرجُ صباحَ كل يوم إلى مالا أعرف، كنتُ أخرج بغرض المشي لا أكثر، وأمشي وأتيه في المدينة التي لا أعرفها من قبل، إنّ أجملَ ما في المدن التي نزورها ونحن لا نعرفها هو أن نضيعَ فيها، ولذلك أفسدت كثرةُ اللائحات الإرشادية في باريس على غادة السمان مُتعة أن تضيعَ فيها كما قالت، هذا المشي كانَ يمص الطاقة السلبية في جسدي، كان له قدرة هائلة على بثّ الطاقة الإيجابية في دمي، يوماً بعد يوم وصباحاً بعد صباح، حفظني أهل المنطقة، وتعرفوا عليّ وتعرفتُ عليهم، أحببتهم مع أنّي لا أعرفُ عنهم شيئاً غير مصافحة وجوههم صباح كل يوم، في الأسبوعِ الثاني بدأتُ أنتبه لفتاةٍ تمشي صباحَ كل يومٍ من بيتها إلى الساحة العامة، لم تكن ملامحها تركيّةً أبداً، كنتُ أستغربُ نشاطها في زمنٍ سيطرَ فيه الكسل على أغلب البشر، كانت إذا وصلت الساحة العامة تدخلُ أحد المقاهي الموجودة، وتشرب كأساً من الشاي، وأحياناً ثلاث كؤوس، ملامحها خليجية، لا أعرفُ ما الذي دهاني ذلك الصباح فتبعتها ودخلتُ نفس المقهى وجلستُ إلى طاولة قريبة منها، كانت وجوهنا حمراء من المشي، كانت جميلةً حتّى والعرق يتصببُ من وجهها، وبدأتُ

أتأملها، لوحة فنّية قلّما يرى الأنسانُ بجمالها، ذكرتني أول مرّةٍ رأيتها ببيتِ الجواهري لما تحدث عن بائعة السمك في براغ فقال:

ويا خيرَ من لقّنَ المُلحدين
دليلاً على قدرةِ القادرِ

لم يكن وجهها مُدوّراً كالقمر، كانَ حدّاً كالسيفِ ولهُ بريق، كانت تتظاهر بانشغالها بالجوّال بينما تسترقُ النظر إليّ، تجرّأتُ فجأةً وأنا أرتشفُ أخر رشفة من فنجان القهوة وقلتُ لها ببلاهة غريبة، وبدون مُقدمات: من أينَ أنتِ؟ وابتسمتْ.
كانَ واضحاً أنّها ارتبكت حينَ نظرت إليّ وقالت: تسألُني أنا؟
هززتُ رأسي: نعم أنتِ، وهل يوجد غيرنا هنا في هذا الصباح الباكر؟، وابتسمتُ مرّةً أخرى.
كأنّها لم تسمع شيئاً منّي، قامت وحاسبت وانسحبت.
يا للغباء ماذا فعلت؟، طلبتُ فنجاناً ثانياً، وبدأتُ أكتب، وأمسح وأكتب، وأكتب وأمسح.. كانَ وجهُ تلكَ الفتاة وجه خيرٍ على شعري، فبعد أربعة عشر يوماً استطعتُ أن أكتب أخيراً، كأنّ جبالاً كانت على صدري خرّت فجأةً بشخطة قلم، كتبتُ يومها قصيدةً مازلتُ أحبّها حتى الآن، أنا الذي ما أن تولد لي قصيدة حتى أنسى التي قبلها نسياناً أبدياً، لماذا لا أدري، أما هذه القصيدة فهي الوحيدة التي ما نسيتها

ولا أظنّ أنني سوف أنساها، لا أعرف هل وصلتكِ أم لم تصل، ولا يهمني في الحقيقةِ هذا كثيراً، كلُّ الذي يهمني أنني كتبت، تُتعبني العناوينُ كما تعرفين، إلا في هذهِ القصيدة التي لا أعرف سرها، كانَ عنوانها جاهزاً قبل كتابتها، يُطالبنا بالاعتراف فوراً، "لنعترف" هي القصيدة التي جاء في مطلعها:

ليسَ حُباً..

نحنُ كنَّا واهِمَينْ

لنعتَرفْ..

لنعتَرفْ..

نحنُ كنّا كاذبَينْ

وهوانا ..

كانَ تضييعاً لأوقاتِ المللْ!

كيفَ أسميناهُ حُبّا؟؟

كانَ ضرباً من خيالٍ

كانَ لهواً..

كانَ وهماً..

كذبةٌ لا تُحتملْ!

وبروداً..

وغباءً..

ما حصلْ!

لقد كنتُ خائناً مثلك، وخيانتي كانت أعظمُ في نظري من خيانتك، أنتِ خُنتِ رجلاً، أمّا أنا فخُنتُ قلبي لمّا أسكنتكِ فيه، وعندما صحوت من غفلتي حاولتُ أن أُخرجكِ منهُ فخانني كما خُنتهُ وأبى.

رجعتُ بعد شهرٍ تقريباً إلى حِمص، لقد مرّ شهرٌ كاملٌ وهاتفي مُغلق، أتحدثُ مع أهلي عبر هاتفي الآخر الذي لا تعرفين، شهرٌ كامل هل اتصلتِ خلاله؟، لا أعلم، فتحتُ الهاتفَ فانهالت عليّ عشرات الرسائل من كلّ الأرقام، إلا رقمك أنتِ! في الحقيقة قبل أن أفتح الهاتف كنتُ أظنّ أنني سأجد الكثير من الرسائل والاتصالات منكِ، لكنني لم أجد شيئاً، كانَ اتصالكِ بي بعدما رأيتكِ صبيحة ذلك اليوم هو آخر اتصال، صحيح هل قلتُ لكِ إنّ شاشةَ هاتفي قرّرت الانتحار بعدما هجرها رقمك؟، نعم وفجأةً قررت ألا تعمل أبداً، كانت مُستعجلةً على الموتِ فلم تُمهلني لأكمل قراءة ما وصلني من رسائل، لم أقُل لكِ؟، ليسَ ضرورياً، فتعطّلُ حياتي كلها، ما هزّ فيكِ شعرة.

قبلَ أن أعودَ من تركيّا، وبعدما أهدتني تلك الفتاة قصيدةً دونَ أن تشعر، قررتُ أن أشكرها، انتظرتُ اليومَ التالي وخرجتُ كعادتي، وتبعتها بعدما فرَغتْ من المشي وفرَغتُ، جلستْ في المقهى فجلستُ، طلبتْ مشروباً وطلبتُ، تظاهرت باللامُبالاة، فتظاهرتُ، شربتْ الشايَ وشربتُ، ولكنني في هذا الصباح لم أمتلك جُرأة الأمس، خرجتْ من المقهى فخرجتُ، لا أعرفُ أينَ ذهبتْ، ولستُ أذكرُ أينَ ذهبتُ!

حاولتُ أكثر من مرة، يوماً بعد يوم أن أستعيدَ من جرأة ذلك اليوم وما استطعت، إلى أن جاء يومٌ كانَ سفري في اليوم الذي يليه، تبعتُها إلى المقهى، ولما جلَسَتْ ظللتُ واقفاً، واقتربتُ شيئاً فشيئاً من طاولتها وابتَسَمت، لم يعد بوسعها التجاهل، فأنا أقفُ على بُعد شبرٍ واحدٍ منها، قالت وهي تضع نظارتها الشمسية على الطاولة بطريقة الاستفهام: نعم؟ ارتبكتُ في الحقيقة، لكنني استجمعتُ قوايَ وقلتُ مُصطنعاً ابتسامةً تفضحُ ما في داخلي من ألم: أحببتُ أن أشكركِ.

قالت مُستغربةً وهي ترفعُ نظرها إليّ: على أيّ شيءٍ تشكُرني؟

مُبتسماً: هل تسمحين أن أجلسَ وأقصّ عليكِ سبب شُكري لك؟

بنصفِ ابتسامة ملؤها المجاملة: تفضل.

عندها شعرتُ بالانتصار وكأنني كنتُ أخوضُ معركةً طاحنة، كان العرقُ يتصببُ من كلينا بعد مشي أكثر من ساعة، قلتُ لها بعدما جلستُ بلحظة: معذرةً، أُريد أن أغسل وجهي وأعود.

–تفضل.

ذهبتُ مُسرعاً، فغسلت وجهي ودخلتُ الحمامَ أيضاً، وعُدتُ مُسرعَ الخطى، فلم أجدها، أينَ ذهَبت، لم يمضِ على ذهابي ثلاثة دقائق؟ جلستُ على ذات الطاولة كأنّ شيئاً لم يكن، قلت للنادلِ أن يأتيني بفنجانِ قهوة، وبدأتُ أفكر لماذا فعلت هذا؟، ما الذي دفعها للموافقة على جلوسي ثم الانسحاب بهذه الطريقة السافلة!، كانَ الغيظُ يرتفعُ دفعةً واحدةً في صدري، جاءَ النادل ومعهُ فنجان قهوتي، وضعه وبدأ

يصبّ القهوة فيه وأنا أنظرُ في الفنجان، رفعتُ رأسي لأشكرهُ فرأيتها تقفُ بجانبه وتسحب كرسيّاً لتجلس، ابتسمت لا شعورياً ابتسامةً تدلّ على هبوط تام في حاسة الحقد عندي، قالت وهي تجلس: أعتذر منك، اتصل بي والدي منَ الكويت، فقمت لأتحدث في الخارج.

بابتسامةٍ أعرض من مرمى كرة القدم قلت لها– لا عليكِ أبداً، لا عليكِ ناديتُ النادل فوراً وقلت لهُ: انظر طلب الآنسة.

طلبت لنفسها شاي، وقالت مُبتسمةً بعدما ذهب النادل– يبدو أنكَ تُحبّ القهوة.

للوهلة الأولى كنت سأجيب: وأكرهُ الخيانة، ولكنّ اللهَ سَتر.

قلت: القهوةُ تُشبهني، وأنا أُحبّ الذينَ يُشبهونَني.

كأنّها أُعجبَت بما قلت، فابتسمت وقالت: أمّا أنا فيُشبهني الشاي.

قلت وأنا أُشعلُ سيجارتي الأولى– برغم مرارةِ القهوة إلا أنها الأنثى الوحيدة التي لا تخون.

تبسّمت وقالت– يبدو أنّكَ مررتَ بتجربةٍ سيئة جعلتكَ تُعمّم حكمك.

سَكتَتْ لحظة ثم قالت– هل أُمّك خائنة؟

شعرتُ بألمِ الكفّ الذي صفعهُ سؤالها على خدّي، ثمّ كأنني انتبهتُ إلى خطأي فقلت– كلامك صحيح، مررتُ بتجربة سيئة، ولكنّها أبداً لا تُبيح لي ولا لغيري التعميم.

قالت وهي تهزّ رأسها– يُقال: إنّ الضربة التي لا تودي بك، تزيدكَ قوة.

هززتُ رأسي وأنا أقول صحيح

ابتسمت – قل لي الآن لماذا شكرتَني؟.

قلت بصوتٍ خافت بعدما تنحنحت– عفواً هل يحق لي معرفة اسمكِ أولاً لأخاطبكِ به.

قالت وهي تبتسم– ولو أنني أظنه ليسَ ضرورياً ليتمّ الحوار، لكن لا مانع، اسمي هَنَا. وأنتَ ما اسمُك؟

قلتُ وأنا أضع الفنجان على الطاولة– جميل، عاشت الأسامي، أنا اسمي شاكر عربي.

– اسمكَ جميل.

– شكراً لكِ

– العفو

تابعت– إنني يا سيدتي وبكلّ أسى وأسف شاعر، وابتسمتُ ابتسامةً شاردة ثمّ تابعت– من مدينةِ حمص، وبعد أربعة عشر يوماً من غضبِ الشِعر عليّ وذهابه عنّي، كانَ وجهكِ صبيحة أول يوم رأيتكِ فيه هُنا يا هَنَا، وجه خيرٍ عليّ، فبرؤيتكِ صفحَ الشعرُ عنّي وعاد إليّ، ولهذا أحببتُ أن أشكرك.

ضحكت وهي تقول– معقول

– هذا الذي حصلَ فعلاً

– وشِعركَ موزون؟

– ومحزون أيضاً!

– لمَ هذا التشاؤم كله؟.

– لأنه ليس ثمّةَ ما يدعو إلى التفاؤل.

– بل هناكَ ما يدعو إلى التفاؤل.

– وما هو؟.

– أنا، وابتَسَمت.

كانَ دَمُها خفيفاً كنسمةِ هواءٍ قُبيلَ الفجر، انتهى لقاؤنا بهاتفٍ أتاها من والدتها التُركية، وقبل ذهابها قلت لها سجّلي عندكِ رقمي فأنا أتشرف بمعرفتك جداً، أخذت الرقمَ وسجّلتهُ عندها، وودعتني وذهبت، شعرتُ بعد ذهابها أنني أخذتُ بثأري منكِ، مع أنه لم يحصل شيء بيني وبين الفتاة، وكلّها مجرد ربع ساعة برفقة فتاة لا أعرفها، لكنّها أورثتني طاقةً إيجابيةً، وكانت مصدرَ تفاؤلٍ حقيقي، لا على سبيل المزاح كما قالت.

رجعتُ إلى حمصَ ولسانُ حالي يُرددُ بيتَ الشاعر الرائع مجدي معروف:

تعودُ إليكَ، ولستَ تراكَ

وأنتَ بلا وجهةٍ مُبحرُ!

لقد كبرتْ حِمصُ في شهرٍ واحد عشرَ سنين، خرجتُ مساءً إلى الخراب بمفردي، كانَ أمير –الشخص الوحيد الذي اتصلت بهِ وأخبرته أينَ أنا– مسافراً.

هو الآن في دمشق، ويعودُ بعد شهرٍ تقريباً، أخذتُ فنجان قهوتي وجلستُ وحيداً، تأخذني ذكرى وتأتي بيَ أخرى، ما أقربَ بيتكِ منّي، كلّ ما كانَ عليّ فعلهُ لأرى بلكون بيتك، هو أن أنظرَ خلف البساتين القريبة منّي، تُرى أينَ كنتِ وقتها؟، سألتُ نفسي هذا السؤال الذي أسألها إياه عشرات المرات يومياً، وكالعادة لا تُجيب، وهكذا..، ومن سؤالٍ بلا إجابة إلى سؤال مثله، لم أشعر بقدميّ إلا وهما تنتصبانِ وتسيرانِ باتجاهِ بيتك، كلّ ما كان في ذاكرتي منك ذلك الوقت أيامنا الجميلة، لا أعرف أينَ ذهبت ذكرى الخيانة، لا أعرف لا أعرف، بدأتُ أسير وأنا أُفكر بك وبما ينتظرني إذا اقتربت من بيتك، ترى هل تكونين عند أمينة؟، لا أعرف أيضاً، بدأتُ أستعجل الخطى أكثر وأكثر، حتّى وجدتُني أقف مُقابل بيتك على الطرف الآخر من الطريق، لا أرى إلا الظلام، أنوار البيت مُطفأة، والشبابيكُ مُغلقة، لاشيء يوحي بحياةٍ داخل هذا البيت، أينَ أنتِ؟ أدرتُ وجهي وعدت من حيث أتيت، ذهبتُ إليكِ حاملاً شوقي وعدتُ بخفّيْ وجعي، خمسة أشهرٍ وثلاثونَ قصيدةً هي كلُّ ما نملكُ اليوم من حُبّنا رحمةُ عليه!

بدأتُ أمرّ يومياً بقربِ بيتك أتفقدُني! ولم يتغير شيء حتّى لحظة كتابتي هذه الكلمات، إنّ أصدق ما قال شاعرٌ:

وما حُبُّ الديارِ شَغفنَ قلبي
ولكن حُبّ من سَكنَ الديارا

ظللتُ أمرُّ مع أنني عرفتُ بعد اسبوعينِ من عودتي أنكِ انتقلتِ للعيش في الإمارات، كيفَ عرفت؟، هل يُهمكِ هذا، لا أظنّ، لكنني سأخبرك. ذهبتُ إلى توفيق، بعد اسبوعينِ من زيارتي اليومية لبيتك، أخبرته طبعاً أنني على علاقة صداقة بك، وأن جوالك مُغلق منذ مُدّة، فقال لي أنّ لمى –أختك من الرضاع– وحبيبته، أخبرتهُ أنكِ ذهبتِ للعيش في الأمارات مع عائلتك، بعدما وقَّع والدك عقد عمل هناك، شكرتُ توفيق ولم أُظهر لهُ شيئاً ومشيت، هل تعرفين ما الذي خطر ببالي لحظة تركتُ توفيق؟، لقد تذكرتُ أن السيارة التي رأيتكِ تضحكين فيها مع ذلك الشاب كانت تحمل لوحات دولة الإمارات، هل كانَ خطيبكِ وأنا لا أعرف؟، هل تعرضنا أنا وهو لخيانة مُشتركة!؟، بدأت الدنيا تسودُّ بوجهي تدريجياً، كانت الساعة العاشرةُ مساءً، ركبتُ سيارتي وقمتُ بتشغيل قصيدة المستبدة بصوت شاعرها كريم العراقي، واتجهتُ إلى الخراب، أخذت كأسَ بابونج واقتربت من كرسيّي وإذا برجل يجلسُ مكاني، ما أبشع أن تعتاد الجلوس في مكانٍ ما، وتأتي يوماً فتجد غيرك سبقك إليه، جلستُ بمحاذاته من باب النكد لا أكثر، وأشعلتُ سيجارتي وأنا أُرددُ في داخلي بيتَ كريم العراقي الذي كنتُ أستمع:

شكراً لجرحٍ فيهِ كانت صحوتي
شكراً لجرحٍ فيهِ كانت صحوتي

لقد عدتُ إلى حمص رغماً عني، ما أروع السفر عندما يكون قرار الرجوعِ بأيدينا ولا يوجد لدينا أيّ ارتباط يُجبرنا على العودة، كنت أودّ الغياب أكثر حتّى أنساكِ، ولكنني لم أستطع بكل أسف، لقد منعتني ارتباطاتي الكثيرة، وجرت الأيامُ يا حبيبتي سريعةً كعادتها مع الناس، لكنّها قررت أن تكونَ سلحفاةً معي، لا يهم كثيراً فالسلحفاة ولو كانت بطيئة لكنها في المحصلة تمشي، لقد مرّ على فراقنا ستة أشهرٍ وها نحن ندخلُ في السابع الآن، وللتو يا حبيبتي خرجت من لقاءٍ صحفي سُئلتُ فيه عنكِ، كلّما حاولتُ نسيانكِ ذكرتني بكِ الأشياءُ من حولي، في كلّ نظرةٍ تقعُ عليها عيني ألفُ ذكرى، هنا وقفنا، هنا جلسنا، هنا ضحكنا، هنا بكينا، هنا وهناك وهنا، –حيثُ التفتُ رأيتُ وجهكِ ضاحكاً–، لا أعرف كيف يتلاشى شعورُ الانتقام في داخلي كلّما تذكرتُ ابتسامتك، آهٍ لو تباعُ ابتسامتُك، ولكنها أشياءُ لا تُشترى كما يقولُ دنقل.

وانتهينا، الذي يُحرقني حرقاً هو أنكِ اتصلتِ اتصالاً واحداً بعدما رأيتكِ مع حبيب القلب، وها هي الشهور الست مرّت ولا حسٌّ منكِ ولا خبر عنك، أسألكِ للمرةِ الألف هل رأيتِني يومها حتّى اتصلتِ بعد ساعةٍ من رؤيتي لكما؟ ولماذا اتصالٌ واحد؟ ما أحقر الأسئلة التي تنحتنا نحتاً ولا نعرفُ لها جواباً، كتبتُ لكِ مقالاتٍ لا تُعدّ ولا تُحصى في مجلتي "صدى الشعر"، وذكرت اسمكِ صراحةً عسى أن تشعري بشيءٍ يُعيدكِ

لي، وكلّ المقالاتِ كانت عبث، هل أعجبتكِ الإمارات؟ هل سوفَ تخونينَها كما خُنتِني؟، لا أستبعد، الذي يخونُ مرّة يخونُ ألفَ مرّة.

تزوجتِ الآنَ ونسيتِ كلّ شيء، أخبرني توفيق قبلَ يومين عن الحفل العظيم الذي أقامه لكِ عريسُ الغفلة، ولكن هل يحقّ لحبيبٍ قديم أكلَ عليهِ الهجرُ وشَرِبَ وتمضمضَ أن يسألَ سؤالاً؟ لا مانع حتى لو لم يكن لي الحق فسأسأل لأنه ليسَ ثَمَّة جوابٌ أصلاً، ما هو الشيء الذي وجدتهِ في عريسكِ ولم يكن فيَّ أنا؟ عبارة "أدفع عُمري" مُستهلكة جداً لكنني والله أدفعُ عمري على أن أعرف، أتمنى بصدق لو أنني أتذكرُ وجهه يوم رأيتكما، كانت صدمتي بك أحدّ من نَظري يومها، ولهذا فأنا لا أعرفُ عنهُ شيئاً، كذلك تقصدتُ ألا أسأل توفيق عن اسمهِ حتّى لا أكرهَ اسماً لا ذنبَ له، أنا غير قادرٍ على كُرهِ نملة.. ولكنني كرهتك!

أستعدُّ الآن وبعد ستة أشهرٍ على نهايتنا للسفر إلى الإمارات، هل ستكونينَ بانتظاري في المطار؟ سامحيني أُهلوسُ أحياناً وأتخيّلُ أحداثاً من المستحيل أن تحدث، وإنني والذينَ جرّبوا الحب نعرفُ جيّداً أن الحبّ يُخالفُ كلّ التوقعات، سأقفُ في مطار دمشق بانتظارِ أن تُفتحَ أبواب الطائرة التي ستأخذني إليك، ومؤمنٌ كلَّ الإيمان أن توقّعاتي ستخيب، وأنني لن أجدَكِ في المطار.

سافرتُ إلى الإمارت فعلاً وعدت منها بعد شهر، لا شيء جديد، كعادتي هناك مع العائلة يومياً، وهذا لا يعني أنني لم أبحث عنكِ، بالطبع

حاولت وبالطبع فشلت، لن أقول كما يقول الجميع بحثت عن إبرةٍ في كومةِ قش لا، بل كنت أبحث في اللاشيء عن كل شيء.

الحبّ لغزٌ كل من حاول حَلّهُ فُقِد، اطمئني.. أنا الذي لن تكتبي عنهُ يوماً "ليتهُ يقرأ" فاكتبي..، إنّني أُريدُ أن أراكِ ولو على الورق، في الإمارات كلّ شيء جميل إلا أنها لا تسدّ فراغَ حِمص في قلبي، حمص المدينة التي لا يُفكرُ أهلها بالسفر خارجها بغرض السياحة، فأينَ يذهبون؟، إذا كان أبو البقاء الرندي في مرثية الأندلس سمّى اشبيليةَ حِمص نسبةً إلى جمالها فقال: أبعدَ حِمصَ تغرُّ المرءَ أوطانُ؟ أُردِدُ بيتَ أبي البقاء دائماً فأقول: أبعدَ غَيدا تغرُّ المرءَ نسوانُ؟ أنتِ وطني الضائع، وطني المفقودُ الذي لم أجده ووجدهُ رجلٌ آخر واستوطنه، لقد حاولتُ أن أكتبَ شيئاً قبل أن أُسافر من الإمارات عائداً فما استطعتُ إلا كتابة بيتين اثنين، لكنهما أهمّ عندي من قصيدة، كتبتهما وأنا في الطائرة:

سوادُ الليلِ ذَكرني حبيبي
وذكرني الهوى قبلَ المغيبِ

زمانٌ فاتَ هل سيعودُ يوماً
وهل إن عادَ يرجعُ بالنصيبِ؟

طبعاً لن يرجع لا بالنصيب ولا بغيره، لكنني: أُعزي النفسَ بالكلماتِ أكتُبها، صحيح نسيت أن أُخبركِ، تعرفتُ في الإمارات على شاب لطيف اسمهُ وسام، من حِمص أيضاً، أخبرني أنهُ يعيشُ في الإمارات منذ عشر سنين، وأنهُ –يا للصدفة– يعملُ في وزارة الثقافة مسؤولاً عن تنظيم الأمسيات الثقافية هناك، تحدثنا كثيراً عن الأدب العربي والكُتّاب الجُدد، والمُنعطفات الخطيرة التي تواجهُ الشعر العربي بشكلٍ خاص والأدب العربي بشكلٍ عام، كانت جلسةً ممتعةً جداً تمنيتُ أن لا تنتهي. كنتُ في المكتبة في أحد المولات، أبحثُ عن كتاب لمّا رأيتهُ وعرفني فوراً وبادرني السلام قائلاً بابتسامة عريضة: شاعرنا الجميل شاكر، سلمتُ عليهِ مُبسماً وتحدثنا لخمس دقائق عن الكتب ثمّ دعوتهُ لفنجان قهوة، وجلسنا لساعة نتحدث ثمَّ افترقنا، أعرفُ أن هذا لا يهمك في شيء، لكنني أُخبركِ بما يدور معي على الورق الذي لن يصلكِ يوماً ولن تعرفي ما فيه، حتى لا أشعرَ بوحدتي ليس أكثر، اطمئني يا حبيبتي، بدأتُ أشعرُ بالشفاء منكِ ونحنُ ندخل الشهر الثامن بعد الفراق، لامني أمير كثيراً، وواساني كثيراً، الصديقُ الحقيقي هو الذي يكون جسراً نعبرُ من خلالهِ إلينا، الشهر الذي قضيتهُ بعد عودتي من تركيا كانَ أصعب الشهور لأنّ أمير كانَ مُسافراً، كانت عودته إلى حِمص عودةً لي أنا، رغم سيول اللوم التي ألقاها عليّ كنتُ سعيداً بعودته، خرجتُ معهُ في أولِ يومٍ عاد فيهِ إلى الخراب وجلسنا كعادتنا من الساعة العاشرةِ مساءً

حتّى الصباح، أشعلَ سيجارتهُ وهو يجلس وقال: الحب كذبةٌ يُصدقها الجميع بإرادتهم.

ابتسمتُ له– هذا ظلمٌ للحب، الحب يا صديقي اختبارٌ لا يجتازهُ إلا الصادقون.

دارتِ الأيامُ دورتها والشهرُ التاسعُ بعد الفراق دخل علينا، وصلتني دعوةٌ من وسام لإحياء أُمسية شعرية في أبو ظبي بعد شهر من الآن، هل ستحضرينها؟، لا أتوقع طبعاً ويكفيني أن تسمعي بها.

سيكونُ هذا الدفتر معي في الإمارات، حتّى أوثّق كل ما يحصل هناك، وأستطيع من الآن أن أُخمّن ما سيحصل، سوف أكونُ سعيداً جداً وحزيناً جداً، لا تستغربي أبداً سأشرحُ لكِ كيفَ يتجمعُ شعورُ السعادةِ والحزن في قلبٍ واحد، سأكونُ سعيداً لأنني بقربكِ وحزيناً لأنكِ لستِ بقربي، فسري هذه الفلسفة كما شئتِ، أُحبّكِ وأكرهكِ.

الفصل السادس

"مذكرات غيداء"

وليس لنا في الحنينِ يدٌ
وفي البُعدِ كانَ لنا ألف يَدْ
سلامٌ عليك.. افتقدتُك جداً
عليَّ السلامُ، فما أُفتَقَدْ

– ساري العتيبي

فرغتُ الآنَ من قراءةِ دفترِكَ يا شاكر، وبما أنني لستُ بارعةً في الكتابة مثلك، أرجو أن يتسعَ صدرك لبساطة لغتي، فإنني أخشى أن يكون الكِبرُ أخذَ مأخذَهُ منك، وأنك أكبر بكثير من أن تقرأ لحبيبة قديمة من حبيباتك الكثيرات اللواتي لا يُجدنَ الكتابة الأدبية، لا أُخفيكَ أنني أُحبّكَ حتى اللحظة، وأعرفُ أنّني الحبيبةُ الوحيدة التي استولت على عرش قلبك، ولا أُخفيكَ أنني بكيتُ كثيراً وأنا أقرأ دفترك، لا أعلمُ لماذا، هل كانَ شوقاً إليك أم كانَ حُزناً عليَّ وعليك؟ أتيتَ إلى الإمارات بدعوةٍ من زوجي وسام، لا أنسى أبداً وجهك يومَ اعتليتَ المسرح مُرتبكاً وقلتَ مُبتسماً قبلَ أن تُمسّيَ على الحضور: هُنا يُثمرُ الشِعر، صفّقَ لكَ الجميع، ومسّيتَ أنتَ عليهم، كنتُ جالسةً أمامكَ مُباشرةً ولكنَّ الإضاءةَ في المسرحِ كانت نصيبك وحدك و كان الظلامُ نصيبَ الحضور، كانت بقعةُ الضوءِ فوقَ رأسكَ تقولُ للجميع: كلّكم مستورٌ إلا من فضحَ نفسه! تساءلتُ وقتها وهل يفضحُ المرءُ نفسهُ؟، أجبتَ أنتَ قبلَ أن تبدأ بإلقاء القصائد وقلت: اليومَ ستسمعونَ إلى فضائحي!، عفواً قصائدي، وضحِكتْ، ضحكَ بعض الحضور، وكانَ ارتباككَ واضحاً.

تَابعت: إنّ الإنسانَ يموتُ وسّرهُ في قلبهِ إلا نحنُ معاشرَ الشعراء فإننا نفضحُ أسرارنا بأيدينا إذ نكتُبها على شكل قصيدة.

قد يخطرُ على قلبي كل شيء، إلا أن تكونَ قصيدتكَ الأولى لي أنا، وأن يكونَ اسمي بها دليلاً على ملكيتي لها.

أفسدَ عليَّ صدقُ قصيدتكَ مكياجي الذي سَفكتهُ الدموع ما إن بدأتَ الإلقاء، وقدّمتَ للقصيدة بقولك: عندما يَعزُّ علينا لُقيا من نُحبّ، تُنقذنا قصيدة، ثمَّ بدأت بقصيدةٍ كان مطلعها:

رأيتُكِ في المَنامِ وكان عندي
شعورٌ بالتلاقي بَعدَ بُعدِ

وقفنا بينَنا خلقٌ كثيرٌ
وقوفاً بينَ أعيُننا كسَدِّ

وأرجفُ كنتُ من فرَحٍ وشوقٍ
وتبتَسمينَ كنتِ كحقلِ وردِ

أمامَ النَاسِ أرقصُ مثلَ طفلٍ
كأني رغمَ كلِّ الناسِ وحدي!

أُناديكِ.. ارجعي، طمعاً برَدِّ
وتلتَفتينَ لكن دونَ ردِّ

فترتجفُ الأماني في فؤادي
وأصرخُ عالياً.. غيداءُ رُدّي!

الحمد لله أنَّ وسام كانَ مسؤولاً عن الأمسية ولم يكن جالساً إلى جانبي، لقد بكيتُ حتّى كَلَّ جفني، وجفّ دمعي، ماذا فعلتَ يا شاكر؟، لقد خرجتُ منَ المسرحِ مسرعةً بعد القصيدة، حتى أُصلحَ شيئاً مما أفسدَ الدمعُ في وجهي، وقفتُ في مغاسلِ دورات المياة أنظرُ إلى وجهي الذي غمرهُ الكُحل، غبتُ عن الوجود لحظات، جاءتني حمص، ذهبتُ بعيداً يا شاكر، تذكرتُنا.. تذكرتُنا حتى أصابتني نوبة بكاء أُخرى أشدّ من الأولى، رجعتُ بعدها إلى مقعدي في المسرح وسَرحت، أنتَ تُلقي وأنا سارحةٌ في عينيك، في جفنيك، في خدّيك، في كفّيك، في كلّ تفصيلٍ صغير من ملامحك المُتعبة، وعندما شارفتَ على الانتهاء، لملمتُ دموعي وبقايا قلبي وقمت، تعمدتُ الخروجَ قبلَ أن تنتهي من قصائدك وتكشفَ الإضاءةُ لكَ جمهورك، تعمدتُ الخروجَ قبلَ أرى الصبايا وهنّ يلتقطن معك الصور التذكارية، بخطواتٍ أسرع من دقّات قلبي خرجتُ منَ المسرح، كانَ وسام الذي تفقدني مرتين خلال الأمسية وأخفت عنهُ عُتمةُ المَسرح حزنَ وجهي، يتصل بي وأنا خارجة.

– أينَ أنتِ، أتيتُ إلى مقعدك فلم أجدك؟

–خرجتُ للتو قبلَ أن يزدحم الممرّ بالناس

– انتظري يا مجنونة، ألا تُريدينَ أن أُعرفكِ على الشاعر ولكي يوقّع لك ديواناً من دواوينه؟

قلتُ لوسام لا أريد، تكفيني رؤيته ولا أهتمّ كثيراً لتوقيعه.

إنّ توقيعكَ الحقيقي كان على قلبي يا شاكر، وبصمتكَ في حياتي لا تزال حتّى اللحظة، وحتى آخر لحظة، هذا مالا يعرفهُ وسام ولا غيره.

وحُبُّكِ لو يوماً يعودُ أعدتهُ
وكررتُهُ.. لو أنّهُ يتكررُ

سامحني إذا كنتُ لا أُصدقكَ في هذا البيت الجميل جداً والكاذب جداً، فأنا أعرفكَ جيداً، أعرفُ أنّكَ تُفضّلُ الغياب الطويل على اللقاءت القصيرة، فكيف ستقبلُ بي وأنا لستُ لكَ الآن؟ تسعة أشهرٍ على فراقنا وستةٌ على زواجي من وسام، لم أكن أعلم أنّ القدرَ يُخبّئُ لي لقاءً معك، ولم أكن أعلم أن اللقاء سيكونُ مبتوراً فأراكَ ولا تراني، تقرأُ أنتَ شِعركَ وأنا أبكي أمامك ولا تصلُ يدكَ إلى خدّي لتمسحَ الدمع، عادَ وسام مُتأخراً ليجدني بعد الواحدة مُستيقظةً أشرب القهوة وأستمع لأم كلثوم وهي تُغنّي بكلّ ما في الكون من رقّة:

"أغارُ من نسْمةِ الجنوبِ.. على مُحيّاكَ يا حبيبي"

قبّلني من رأسي وجلسَ أمامي– اشتقتُ لكِ.
–وأنا يا قلبي اشتقت لك، أخبرني ماذا فعلت؟

– لاشيء، وقفتُ مع شاكر حتّى انتهى من الحديث مع معجبيه ومعجباته ثمّ أوصلته للفندق وجئتك

–في أيّ فندقٍ حجزتم له؟

– في الهيلتون

–جميل، يستحق كل تكريم، شعرهُ رائع

مُبتسماً– ياللصدفة، حبيبته تحملُ اسمَ حبيبتي، كلانا يُحبّ غيداء، لقد تغزل بها طوال الأمسية

ارتبكت قليلاً ثمّ تنحنحت– صدفة جميلة، وقمتْ.

نامَ وسامُ وأنا أتقلب، تأخذني ذكرى وتعود بيَ دمعة حتّى الصباح، استيقظتُ بعد الظهر وكانَ وسام يستحم كعادته الصباحية، قمت إلى المطبخ وصنعت قهوةً لي وله، ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس أنتظره، قال لمّا خرج وهو يُنشفُ شعرهُ ويمشي باتجاهي: نسيت أن أُخبرك، لقد دعوتُ شاكر على الغداء الساعة الخامسة عصراً في مطعم مكسيمو، سكتُّ قليلاً حتّى أستوعب، شاكر، غداء، يجب أن أحضر، الخ...

قلتُ– أنا لا أستطيع الذهاب معك

مُستغرباً– لمَ؟

–لم أنَم طوال الليل، وأشعر بالتعب

– ا مجنونة كيف تفوتينَ فرصةً كهذه، إنهُ شاكر عربي، لو رأيتِ البارحة كيف الناس من حوله وكيف محبتهم له لعرفتِ أنكِ مجنونة

وأنا أضعُ فنجاني– ساعة من النوم في هذا التعب تساوي عندي الدنيا وما فيها.

هل تعرف يا شاكر أنني ما عرفت بدعوة الهيئة الثقافية لك إلا قبل حضورك بيومين؟ وسام يا شاكر رجلٌ غامضٌ في عمله، لا أعرفُ عن عمله إلا أنه يعمل في الهيئة الثقافية فقط، أما طبيعة عمله فلا أعرف عنها شيئاً، هو لم يسبق أن أخبرني وأنا لم يسبق أن سألته، حتى عندما عرفت قبل حضورك بيومين، كانت معرفتي عن طريق الصدفة، عندما فتحت جهاز "اللابتوب" الخاص بوسام ورأيتُ ملف وورد على سطح المكتب عنوانه: شاكر عربي، كدتُ أن أُجنّ، ما الذي جاء باسمك إلى هنا!؟، وفتحت الملف وأنا أرجف ولكن سرعان ما هدأتُ عندما عرفتُ أنك مدعوٌّ لإحياء أُمسيةٍ هنا في أبو ظبي، لم يدم هذا الهدوء كثيراً، بدأ القلقُ يأكلني، هل سأراكَ حقاً؟، هل ستراني؟، هل سنتحدث؟، هل ما زلت تُحبني؟، هل هل هل، ثمانية وأربعين ساعةً قبل قدومك وأنا مُزعزعة العواطف.

خرجتُ إلى الهيلتون، وأنا أُفكر طوال الوقت هل سيخبرك وسام أن زوجته اسمها غيداء؟، لا أُريدُ هذا، وفي نفس الوقت لا أستطيع أن أقول لوسام لا تقل أمام شاكر أن اسمي غيداء، فهذا مدعاةٌ للشك، أيضاً سأحاول أن لا أتصل به وهو برفقتك، قلتُ لوسام وهو خارجٌ ليذهب إليك ومن ثَمَّ برفقتكَ إلى المطعم: أنا سأخرج نصف ساعة

وأعود، وكالعادة لم يمانع ولم يسأل إلى أين، خرجتُ وراءهُ مباشرة بعدما بدّلتُ ملابسي ولبستُ ملابس حجابٍ لم يسبق لوسام أن رآني بها، أُريدُ أن أراك من بعيد وأُريدُ أن تلمحني، أُريدُ أن أصنع الصدفة بيننا، قد تكون الصدفة التي نصنعها على أعيننا أحياناً أجمل بكثير من تلك التي تأتينا فجأة، ركبتُ سيارتي الفارهة، صحيح نسيت أن أُخبرك، اشترى لي وسام سيارة باهظة الثمن، أُحبها جداً وتُذكرني فيكَ جداً، لماذا تُذكرني فيك؟، لأنني مؤمنة أن كل شيء جميل في هذه الدنيا لا يليق إلا بك، الحمد لله أنني وصلتُ في الوقت المناسب، لكن ماذا عن وسام؟، لا أُريدهُ أن يراني، أوقفتُ سيارتي بعيداً ونزلت، كانت سيارة وسام تقف أمام الباب مباشرة، مررتُ بجانبها ولم ينتبه لي، كان يتحدث بالجوّال، صار ظهري إلى السيارة وأنا أدخل إلى بهو الفندق عندما كنتَ أنتَ واقفاً عند الاستقبال في الفندق تسألهم عن شيءٍ ما، مشيتُ باتجاهك، التفتَ تنوي الخروج، وقعت عيني بعينك!.

كانَ يوماً حافلاً، عادَ وسام إلى المنزل بعد الثانية صباحاً، سّلم عليّ ورمى بجسدهِ على التخت هكذا كما هو، لم يكن يملك من القوة ما يُعينُه على تبديل ملابسه، قمت من سريري إلى المطبخ، شربت كأساً من الماء وأعددت كأساً من الشاي الأخضر وجلست أبحث في اليوتيوب عن أغنيةٍ أسمعها في هذا الهدوء حتّى وقعت عيني على أغنية عبدالوهاب "مُضناكَ جفاهُ مرقدهُ"، أشعلتُها وسرحت..

وقعت عيني بعينك في الفندق، عرفتني فوراً، بدت على وجهك علامات الدهشة، اصفرّ لونك واحمرّ لوني وبدأتُ اسرع الخطى أكثر، ومشيتُ باتجاه المصعد الذي بجانب الإستقبال، شعرتُ بك يا شاكر، لقد حرمتكَ الدهشةُ من التركيز، بدا عليك الارتباك واضحاً، واختفيتُ أنا فوراً، لا أعرفُ ما الذي دفعني لفعل هذا معك، ولكنني أعرف أنني تعمّدتُ أن أختفي مباشرةً حتّى لا تبادرني الحديث، خفتُ فجأةً يا شاكر وارتبكت، لماذا؟ والله لا أعلم.

و أنا أشربُ الشاي الأخضر خطرت لي فكرة، ماذا لو أخذتُ رقمك من جوال وسام؟، ترددت قليلاً ثمّ فعلت، لكن ما الفائدة؟، ماذا سأفعل به؟، قلتُ في نفسي يكفي أن أرى حالتك في الواتساب يومياً.

كان عبدالوهاب في هذه اللحظة يقول:

مولايَ وروحي في يدهِ
قد ضيّعها، سَلمت يَدُهُ!

إنه أجمل بيتٍ في القصيدة، لا أعرف ما الذي تعاطاه أحمد شوقي من الحب يومَ كتب هذه القصيدة وهذا البيت بالذات.

أضفت الرقم عندي وفتحت الواتساب، كنتَ تضع صورةً سوداء، وكانت الحالة جميلة جداً لا أنساها:

منذ ولدتَ وأنتَ تقاتلُ الحياة، لتصلَ إلى موتكَ سالماً.

استغربت، فليست عادتكَ أبداً أن تكون الكلمات في حالة الواتساب لأحد غيرك، عرفتُ لاحقاً أنها لمحمد التركي.

وسوّلت لي نفسي أن أُرسلَ لكَ شيئاً في الواتساب، لكنني تماسكت ولم أفعل، قمتُ من النوم صبيحة اليوم التالي ووسام لم يرمش له جفن، نائمٌ من كلّ قلبه، وهو بطبيعته من أصحاب النوم الثقيل، قمتُ إلى الحمام وغسّلت وجهي وعدتُ لوسام، أيقظتهُ وذهبت لأعدّ القهوة.

حكى ليَ وسام عن الحال التي كنتَ عليها، وكيفَ كنتَ مزعزعَ القلبِ مُضطربَ النفس، وكيفَ كنتَ سارحاً طوال الوقت وهو يسألكَ: خير؟ ما بكَ اليوم يا شاكر؟، لستَ شاكر الذي أعرف، وأنتَ تبتسم ابتسامةً تفضحها المجاملة– لاشيء يا صديقي لا شيء، ثمّ تعود لشرودك، في الفندق سألتهم عن رقم غرفتك، كانَ مميزاً "١١١"، صعدتُ إليها ووقفتُ على بابها، تمنيتُ لو أنني أستطيع الدخول إليها، أُريدُ أن أرى أشياءك، كُتبك، سجائرك، ملابسك، عطرك، أُريد أن أستنشق رائحتك، وقفت أمام بابها لثوانٍ ثمّ مضيت، تعمدت أن أتأخر بالخروج من الفندق بعض الشيء حتى أتأكد من ذهابكما، خرجتُ وأنا أُفكر لماذا نزلتَ في الفندق وبيتُ أهلكَ هنا؟، شيءٌ غريب وغير مفهوم بالنسبة لي لكنهُ لم يستحوذ على فكري كثيراً، قال لي وسام: شيءٌ حصلَ لشاكر يا غيداء، ليس هو الذي استقبلته في المطار ورافقته في الأمسية، شيءٌ ما حصلَ في تفكيره فجعله هيكلاً أمامي فارغاً من أيّ روح، شعرتُ وقتها بمكانتي عندك يا شاكر، جميلٌ هذا الشعور..

قلتُ لوسام– متى سيُسافر؟

–تفاجأتُ جداً يا غيداء لما أخبرني أن أهلهُ يعيشون هنا في الإمارات، وأخبرني أنهم يعيشونَ هنا منذ زمن بعيد.

–ولمَ لم ينزل في بيت أهله إذن؟

–لا أعرف ولم أسأله، لكنه قال لي أنه سيبقى هنا ثلاثة أسابيع، عموماً ينتهي حجزهُ في الفندق بعد ثلاثة أيام.

ابتسمتُ هنا ابتسامةً استغرب منها وسام وسألني– لمَ تبتسمين؟

وأنا أُخفي ارتباكي– تذكرت شيئاً قالته أمّي لي البارحة، وقمتُ فوراً.

ثلاثة أسابيع، كان لا بدّ من استغلالها بأي طريقة، وثلاثةُ أيام بقيت لك في الفندق لا بدّ أيضاً من استغلالها، علمتُ منكَ لاحقاً أنّ أهلكَ انتقلوا من العيش في أبو ظبي إلى رأس الخيمة، وأنّ هذا ما دعاكَ للنزول في هيلتون أبو ظبي لا في بيتكم، وزالت دهشتي من عدم حضور أحدهم أُمسيتك عندما عرفت أنهم الآن في حمص جميعاً منذ بدأت الإجازة الصيفية قبل أسابيع، فكرتُ كثيراً من أينَ أبدأ؟، ماذا سأفعل أولاً؟، يا الله؟ راحت بيَ الأفكار وعادتْ، وعادت وراحت حتّى خطرت تلك الفكرة الرائعة، نعم سأتصل بك! لا لن أفعل، سوفَ أبعث لكَ رسالةً عبر الواتساب الآن، لكن ماذا سأكتب لك؟ شردتُّ كثيراً، ثمّ فتحتُ مُحادثتك في الواتساب التي يظهر بها أنّك مُتصل الآن وكتبت:

لماذا اعتبرتني خائنة؟

مسحتها فوراً، خفت من ردة فعلك، فأنا أعرفكَ جيداً يا رجلاً يحملُ من القسوةِ في قلبه أضعافَ ما يحملُ من الحنان، نعم مسحتها وكتبت: (تندمتُ كثيراً..) وأرسلتُها.

وكأنّكَ كنتَ تعلمُ بي وتنتظرُني، فقد ظهر لي أنكَ قرأت، فور ارسالي لك، خرجتُ من المحادثة مباشرةً، ارتبكت، تغيّر لوني، إننا لا نستطيع الصمود أمامَ نملةٍ عندما تحكمنا عواطفنا! تندمتُ كثيراً ولكن هذه المرة لأنني أرسلتُ لك، هل ستعرفني؟، أم المعجباتُ الكثيراتُ سيجعلنك في حيرةٍ من أمرك؟ أضحكُ الآنَ كثيراً عندما ما أتذكر هذه الرسالة، كيفَ أخطأتُ في رقمك ووصلت لهاتف فتاةٍ لا أعرفها، وتبين لي بعد الحديث معها حمقي، واستشعرتُ مدى ضياعي لمّا أخذتُ رقمك من جوال زوجي وأنني طوال الفترة السابقة أُتابع حالة الواتساب لرقمٍ لا يمت لك بصلة، في الساعة الثامنة والنصف صباحاً من اليوم التالي ركبتُ سيارتي وإلى الهيلتون، كان وسام نائماً، وأنا أعرفكَ جيداً، حتى في الإجازات تقومُ مُبكراً، فخمنتُ أنه لا بد وأنك ستكون في مطعم الفندق في هذا الوقت كي تفطر، ولذلكَ أحببتُ أن أبدأ يومي بك، وبصورة أدقّ أحببتُ أن تتفاجأ بي، وصلتُ فعلاً ودخلتُ المطعم، وجلستُ على نارٍ طويلاً حتّى قبيلَ الظهيرة وأنتَ لاحسٌّ ولا خبر، رجعتُ مُحبطةً إلى البيت، فقد بدا لي أنّ اليوم الأول من الأيام الثلاثة المتبقية لك في الفندق أُفلت من يدي.

كان التختُ يُحرضني وأنا أبدّل ثيابي على نوم ساعةٍ أو ساعتين، وفعلاً تمددت على التخت ونمت، قلتَ لي في المنام: ستندمين! قمتُ فَزِعةً، ظلامٌ شديد، يا الله أينَ أنا!، نظرتُ في الساعة وإذا بها السابعة، لا أعرف هل أنا في الصبح أم في المساء، أوه يا رب، لقد مرت خمس ساعاتٍ وأنا نائمة، نهضتُ سريعاً وفتحت باب الغرفة أريد الخروج فسمعتُ صوتك! يا الله!، وقفتُ بباب الغرفة هُنيهةً حتّى أتأكد أنني لستُ على قيدِ حُلمٍ ما، يا الله يا الله، إنه صوتك أنت، يستحيلُ أن أُخطيءَ بصوتك لأنه الصوت الوحيد الذي أعرفهُ بحاسّة الحبّ قبلَ حاسّة السمع، رجعتُ إلى تختي واستلقيت، وأخذتُ أتصفحُ مواقع التواصل في محاولة لطرد ارتباكي إلى أن فتح وسام عليّ الباب وقال مُبتسماً– صحّ النوم

ابتسمت– صح بدنك، سمعتُ صوتاً مع صوتك فبقيتُ هنا

–هذا شاكر، اتصلتُ به لمّا استيقظت وجئنا إلى هنا نشرب القهوة وسنخرج الآن.

اكتئبت من الداخل وقلت– إلى أين؟

جلسَ على طرف التخت وقال– إلى الكورنيش، قال شاكر أنّه بشوقٍ إلى البحر.

– ومتى تعود؟

–لا أعلم، لكن أحاول أن لا أتأخر.

لن أدعَ هذا اليوم يُفلت من يدي فالغد هو اليوم الآخير لكَ في الفندق ولا أعرف أينَ ستذهب بعدها، كنتُ أتساءلُ وأنا في طريقي إلى الفندق صباحاً، ما الذي أُريدهُ من لقائك؟، ولماذا اخترعتُ صدفةً أُريكَ فيها نفسي من قبل؟، وعن ماذا سوف نحكي إذا التقينا؟، وما هو التبرير المنطقي الذي سأقوله لك عن رحيلي فجأةً من حياتك وزواجي من وسام الذي كانَ قبلك وجاءَ وأنتَ معي ليُقدمَ لي كلّ شيء في الوقت الذي لم تعدنِ أنتَ فيه بشيء، وصلتُ إلى الفندق ودخلتُ المطعم وأفطرت وانتظرتُكَ من الساعة التاسعة صباحاً وحتّى الحادية عشرة قبيل الظهر، وعلى عكس كلّ اللقاءات التي يصل فيها الرجلُ أولاً لينتظر حبيبته، كنتُ دائماً ضحيةً للانتظار في علاقتي بك، خرجتُ من مطعم الفندق قبيل الظهر وجلستُ في سيارتي القريبة من مدخل الفندق أنتظرك، لا أُريد أن ألتقيكَ هنا، تذكرت أنّ وسام قد يأتي إلى هنا في أيّ لحظة حتّى ولو أنه قال لي أن ليس بينكما لقاء في هذا اليوم فالحذر واجب، في تمامِ الثانية ظهراً رأيتكَ تخرج من باب الفندق، تنتظركَ سيارةُ أُجرة، وقفتَ أمامها قليلاً والباب مفتوح وأنتَ تتحدثُ بالجوال وتلتفت يمنةً ويسرة، خمّنتُ أنّ أحداً ما سوفَ يأتي إليكَ الآن، وبعد أقل من دقيقتين ركبتَ سيارةَ الأجرةِ ومشيت، مشيتُ وراءكَ من بعيدٍ، لا أُ ريد أن تشعر بي أبداً، بدا لي أنني لستُ بحاجة لأن تراني أبداً فأنا مرتبكةٌ جداً جداً، وارتباكي الذي يركضُ خلفَ دقّاتِ قلبي حتّى أنهكها أخافني من لقاءك جداً.

قررتُ وأنا أسيرُ بسيارتي خلفكَ ألا أُشعركَ بيَ هذا اليوم وأن أستمتعَ فقط بقربي منك، قربي البعيد، وصلتَ إلى مطعمٍ مُطّلٍ على البحرِ ونزلت، فأوقفتُ سيارتي وانتظرت قرابة ربع ساعة لأتأكد أنّكَ لن تخرج الان لأيّ داعٍ، أطفأتُ السيارة ورفعتُ حجابي من أسفلِ ذقني إلى قبل الفم وأنزلته من الأعلى ليُغطيَ شيئاً من جبهتي، ووضعتُ نضارةً شمسيةً ذات حجمٍ كبير يغطي أغلب الوجهِ حتّى لا تعرفني ودخلت المطعم، جلستُ بيني وبينك مالا يزيد عن خمسين متر، طلبتُ وجبةً لي وكأساً من عصير البرتقال، وأنتَ طلبتَ فنجان قهوة، لم ترفع رأسكَ عن جوالكَ إلا قليلاً، خمّنتُ أنّكَ كنتَ تكتُب، وطوال الوقتِ كنت أُمسكُ جوالي وألتقطُ لكَ صوراً دونَ أن تشعُر، خاصّةً وأنّ الزاوية التي جلسنا بها لم تكن مليئة بالناس، خطرت لي فكرةُ التقاط الصور هذهِ أوّل ما جلست، قالت لي نفسي التي تُحبك، صوّريه وأرسلي الصورَ لهُ عبر الوتساب بعد رجوعكِ إلى البيت وفاجئيه، عندها سوف يطلب لقاءك. بقينا في المطعم إلى الساعة السابعة،بداية المساء، ثمَّ أشرتَ بيدكَ للمسؤول أن يُحضرَ لكَ الحساب، وفعلاً دفعتَ وقمت مباشرةً، انتظرتُ دقيقتين حتّى تواريتَ عن أنظاري وأشرتُ بيدي للمسؤول أن يُحضرَ لي الحساب وأن يستعجل، الصاعقة كانت في أنهُ لم يذهب ليُحضرَ الحساب، جاءني مُبتسماً وقال لي: حسابُكِ مدفوعٌ سيدتي، لقد دفعه الاستاذ الذي خرج من هنا قبلَ دقيقتين ، وأشار بيده إلى طاولتك!

يا الله، يا الله! أردتُ أن أُفاجئكَ بي ففاجأتني بك، خرجتُ مُسرعةً وراءك لأجدَكَ ذهبت، رجعتُ لطاولتي وأنا أرجفُ عضواً عضواً، أخذتُ حقيبة اليد التي نسيتها من هول الموقف وخرجت، لم تبقَ قصيدةٌ من قصائدكَ التي كتبت بي إلا وصفعتني على قلبي، ركبتُ سيارتي..

كاظم يُغني:

لو أننا لم نفترق..
لو أنّنا..
لو!

وأنا أبكي، ما الذي جرى لقلبي؟ ما هذه الفوضى التي تتحكم بأعصابي ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أخبرني بحق الله، والله لو اتفقنا على لقاءٍ مشابهٍ لهذا لما استطعنا.
أحسّ وسام مؤخراً بأنني لستُ أنا، وبدأتُ أخافُ أن يتطورَ الأمرُ إلى الشك، حاولتُ كثيراً أن أضبطَ عاطفتي التي كادت أن تودي بي ولكنني فشلت، فقد فقدتُ حاسّة التركيز تماماً وصرتُ مشتتة التفكير طوال الوقت، يُحدثني وأنا أهزّ رأسي فقط، ثمّ يعود لنقطة كان يتحدث عنها لأشاركه برأيي فلا يسمع مني إلا ها ها!

مضى على لقائنا في المطعم سبعة أيام، غامرتُ فيها واتصلتُ بك..
أجبت بعد الرنة الثالثة– ألو
سكتُّ أنا..
وأنتَ تُعيد– ألو ألو
لم أستطع قول شيء
سكتَّ أنتَ هنيهةً ثم قلت لي– هذهِ أنفاسٌ أعرفها
أغلقتُ الخط.
كانَ هذا الاتصال تحديداً في اليوم الثاني بعد لقاء المطعم، واستمرينا قرابة الأسبوع ونحنُ نتحدث فقط عن طريق تغيير الحالة في الواتساب، لا أنا أجرؤ على أكثر من هذا ولا أنتَ تخطو خطوةً واحدةً تُساعدني بها على فتح أيّ حديثٍ معك، حتى وضعتَ حالةً في الواتساب شعرتُ أنّكَ تريد منها أن تدفعني بيديكَ إليك، ما زلتُ أذكرها:

عودي إليَّ عيوني كلّها أملٌ
بأن تراكِ حواليها.. وأنظاري

كتبتُ لك وأنا في تختي ووسام نائم، وأنتَ مُتصل بعد الثانية صباحاً– أُريدُ أن نلتقي غداً
رغم قراءتك الفورية أخذتَ وقتا حتّى كتبت– أين؟

طارت عيوني لمّا رأيت ردك وقمت من تختي وخرجت من غرفة النوم فوراً، توقعتُ أن لا ترد.

أجبتكَ فوراً– اختر مكاناً تُحبه

و بعد دقيقتينِ مرّتا كسنتين، كتبت– لا فرق، أينَ تُحبّين؟

أجبتُ مباشرةً– ما رأيك بمطعم إيلانتو؟

– هذا مطعمٌ يناسبكِ أنتِ وزوجك، لكنّهُ كبيرٌ على ذوي الدخل المحدود مثلي.

نزلت كلماتك على رأسي كالصاعقة، كيفَ عرفت أنني متزوجة!، هل أخبرتك أمينة؟ وهل تعرف أنّ زوجي هو وسام؟.

بدأتُ أسير في البيت وأرجع بخطواتٍ سريعةٍ وأنا مرتبكة ومرتبكة جداً وأنت تنتظر رداً.

كتبتُ لك– لن أقول لكَ إنّها عزيمةٌ مني، فأنت أكبر بكثير من أن تعزمكَ امرأةٌ كنتَ تعزمها سابقاً.

لكن دعنا نلتقي على الكورنيش ما رأيك؟

بعثتَ تقول– لا مانع، غداً بعد العشاء اذهبي لأيّ نقطة في الكورنيش وأرسلي لي موقعك عبر الواتساب.

متى سيأتي الغد؟

•••••

حياتي مع وسام وبكل صدق حياة مثالية، قد لا تجد مثلها إلا في الروايات والعربية منها بالذات، وسام هو الحبُّ الأول، الحبّ الذي كانَ قبلك، الحبّ الذي استمرّ عامينِ اثنين، الحب الذي تركته قبل أن أعرفك بثلاث سنوات وظننت أنني شُفيتُ منه تماماً، كانت علاقتي بهِ كأكثر العلاقات العاطفية، بستانٌ في بدايتها، مشنقةٌ في نهايتها، تعلقتُ فيهِ كثيراً، فهو أول رجلٍ أوقد شمعةً في قلبي، وهو أول رجلٍ قال لأحلامي تكاثري فإنّي مُباهٍ بكِ الأحلام يومَ تحقيقها.

كنتُ في الثامنة عشر من عمري، أُحبّ الحياةَ كثيراً وأكرهُ الموتَ كثيراً، وأؤمنُ بالأحلام وبحكايا جدتي، تُضحكني نكتة وتُبكيني كلمة، إنني امرأةٌ كنتُ وما زلت قليلة الأمل إلا بالله وكثيرة اليأس إلا منَ الله، افترقتُ ووسام كما يفترق الأحبّة عادةً.. أعداء، إنّ للفراقاتِ وإن كثُرت وجهاً واحداً على عكس اللقاءات، فهي تحملُ وجوهاً عِدة، وهذهِ هي الحالة الوحيدة التي تُحمدُ فيها الوجوهُ الكثيرة على الوجه الواحد، قد تُفاجأ بكلامي هذا لأنني لم يسبق لي أن أخبرتك خلال علاقتنا عن علاقة سابقة لي بأحدهم، لا أعرف السبب في الحقيقة هل كان حينها دفناً لماضٍ لا أُريدُ له العودة أو لأنك لم تكن كأكثر الشباب فضولياً وتتدخل بكل شيء، لم يسبق لك أن سألتني إن كان لي علاقة بأحدهم قبلك، وأنا فضلتُ السكوت لشيءٍ في قلبي لا أستطيع تحديده بشكل واضح، قبلَ أن تراني صبيحةَ ذلكَ اليوم برفقة وسام، قبلهُ بثلاثة أشهر كنتُ كالعادة مع أمينة في بيتها، وبينما نحنُ نشرب القهوة

وصلتني رسالة، شيءٌ ما يا شاكر، شيءٌ ما حرّكَ قلبي لأعود لوسام، لا أعرف السبب الحقيقي وراء تجاوبي السريع معه، إلا أنني أذكر جيداً أنني كنت أود أن أُثبتَ له أنني ما زلتُ قويةً بعده ولم أمُت بدونه كما كان يظنّ حينَ ابتعد وتزوّج وأنجب، كانت رسالتهُ طويلة نوعاً ما، لم يتطرق من خلالها لتبرير بعده عني وزواجه أبداً، بل كانَ يتحدث فيها فقط عن حبه، وأنّه تندم لما جرى كثيراً، لم أُجب على أول رسالة وصلتني منه ولكنني أجبتُ على الثانية، أيضاً لا أعرفُ لماذا، لكنني فعلت، ثمّ التقينا، أذكرُ جيداً أن تلكَ الفترة كانت مليئة بالاضطرابات العاطفية بيننا أنا وأنت، مليئة بالمشكلات، وبرغم أنها كانت فترةً عصيبةً علينا، لكنّها لا تمنحني حقّ العودة لحبيبٍ قديم، ولا تمنحني حتّى مجرد الرد على رسالة له، ولكنني فعلت.

أخبرني وسام في لقاءاتنا خلال الأشهر الثلاث قبلَ خطوبتي منه أنّهُ وزوجته ريما ليسا على توافق، وأنّه طلّقها ثلاثاً، وأنه وبعد اجتماع ذوي الطرفين اتفقا على أن تعيشَ ريما في بيتٍ يستأجرهُ لها وسام وأن تُربيَ طفلتهُ إلى أن تُقرر الزواج وعندها يأخذ الطفلة منها، تحدثنا كثيراً وعاتبتهُ كثيراً، لكنني كنت أقرأ في عينيهِ نَدمه الكبير، أخبرني أيضاً أنّه سمّى ابنته غيداء، وهذا أمرٌ أشعرني بعظيم حبه لي رغم ما فعل، وقال لي أنني سأعيشُ ملكةً في بيته، وأنه سيقدم لي كل شيء.. كل شيء، وكما رأيتَ بعينك الحياة التي أعيشها في الإمارات، والرفاهية العالية التي كانت بملكي، لقد صدقَ بكلّ ما قال وما وعد.

هنا لن يقرأ أحدٌ ما أكتب ولهذا سأعترف اعترافاً جريئاً جداً، نعم أغرتني حالة وسام المادية بعض الشيء حتى أعود له، وأنت لم تكن تُلمح حتى تلميح عن ارتباطٍ قريب، وهذا كانَ من الأسباب أيضاً، حتى خطبني وسام وحصل ما حصل.

•••••

لم أعد أضع عِطراً –خارج المنزل– كما كنتُ في السابق، مع أنّ هذا مُنافٍ لحياة الأثرياء الذين أصبحتُ منهم، لكنني خفتُ كثيراً حينَ علمتُ أنَّ من تخرجُ من بيتها وهي مُتعطرة، زانية، أعرفُ أنَّ علاقتي بكَ الآن وهذا اللقاء لا يقلُّ ذنباً عن خروجي مُتعطرة لكنني لن أتعطر، ومثلما كنتَ تقولي لي: أُحبُّ ديني بقدر ما أنا مُقصرٌ فيه، أنا كذلك أُحبّ ديني بقدر ما أنا مقصّرةٌ فيه.

خرجَ وسام قبلي بنصف ساعة تقريباً، قال إنه سيذهبُ لزيارةِ أُمّه ومن ثمَّ إلى بيت صديقه مُهند، وقال أنهُ قد يتأخر، بكلّ مافي هذا اللقاءِ من لهفةٍ إليك.. أُحبك، هكذا كنتُ أقول في نفسي وأنا أُغلق باب المنزل ذاهبةً إليك، لتكن أُغنية "أنا بعشقك" رفيقةُ دربي إليكَ هذا المساء، وليكن ليلُنا طويلاً طويلا، كما يقول جرداق، فأنا مؤمنةٌ كلّ الإيمان أنّ كثيرَ اللقاءِ سيكونُ قليلا، وصلتُ أخيراً، وبعثتُ لك موقعي في آخر الكورنيش، حاولتُ أن أبعد عن أعين الناس حتّى تتمكن عيني

من رؤيتكَ بكل راحة، وطمأنينة، كانت دقائق الانتظار التي تلت ارسالي لك بالموقع أطول دقائق في حياتي، على العكس تماماً من الدقائق التي تلت وصولك، كانت أسرع دقائق في حياتي، اتصلتَ بي: أينَ أنتِ؟

–انظر أمامكَ مباشرة، هل ترى سيارةً بيضاء من نوع مرسيدس؟

–نعم أراها جيداً

–اقترب، أنا في الداخل

وعندما فتحتَ بابَ السيارة كنتَ في الحقيقة تفتحُ باباً في قلبي أُغلق منذ زمن.

سلّمتَ وجلست، وبدونِ أن تنظر إلي–ما رأيك لو تمشينا بالسيارة، أفضل من وقوفنا هنا؟ لم أُجب، امتثلتُ لرغبتك مباشرةً ومشيت، لا أنسى تلكَ الليلة ما حييت، توقعت أن تسألني سؤالكَ الذي يتطلّبُ جرأةً لا أملك الإجابة معها، سؤالكَ القاتل– لمَ فعلتِ بي ما فعلتِ؟ لكنّكَ وكعادتك فاجأتني بسؤالك الذي لم أتوقع: ماذا تُريدينَ منّي؟

كان الجواب الحقيقي في قلبي يُنادي: أنا لا أُريدُ منك شيئاً.. أنا أُريدك. ولكنني لا أستطيع أن أظهره لك، لأنّك بالطبع لن تصدقني ولا ألومك أبداً، كان لابد من جوابٍ ديبلوماسي، جواب لا تفهم منه شيئاً، التفتُ إليكَ لثانيتين ثم أرجعت رأسي باتجاه الطريق وقلت– أُريدُ من هذا اللقاء أن يكونَ جميلاً لا أكثر.

ابتسمتَ وأنت تُشعلُ سيجارة وقلت– أنزلي القليل من زجاج نافذتي.

وأنا افتحُ لكَ زجاج نافذتك وأنظر للطريق كان صوتُ أم كلثوم في المذياع يقول: انتَ عمري اللي ابتدا بنورك صباحو.

قلتُ لك– أُحبك.

توقعتُ أن تصمتَ كما يحدث عادةً في المسلسلات لكنّك لم تفعل التفتَّ إليَّ وقلت مُبتسماً– كذبك حلو.

هذه الكلمة وابتسامتك أذهبتا عني ارتباكي مما دفعني لأوقف السيارة فوراً على يمين الطريق.

التفتّ إليك– حقّك الطبيعي أن تُكذبني ولكن ليس بهذه السرعة، ليس قبل أن تسمع مني كلّ شيء.

– لا فائدة أبداً من سماع أيّ شيء عن الماضي، نحن أبناء اليوم، ما الذي تُريدينه مني وأنتِ الآن متزوجة؟.

لابدّ من التهرّب مرةً أخرى من هذا السؤال، لكن كيف؟.

تنحنحت في محاولة سريعة للتفكير برد مناسب، ولكنَّ شيئاً ما جعلني أُجيب بنفس إجابتي الأولى– أُريدُ من هذا اللقاء أن يكونَ جميلاً لا أكثر، وغيّرتُ الموضوع فوراً– هيّا أسمعني آخر قصيدة لك، وأرجعتُ كرسيي إلى الوراء قليل ووجهتُ وجهي إليك، وابتسمت.

لم تتردد، وفتحت جوالك لتقرأ عليّ قصيدةً جاءَ فيها:

ماذا لديكِ مميّزٌ كي أرجِعا؟
نَكديّةٌ مثلَ النساءِ وأفظعا

أخضعتِني بالحبِّ ستّةَ أشهرٍ
والآنَ دوري كي أُذِلَّ وأُخْضِعا

في الحُلمِ كانَ هواكِ نهراً صافياً
لمّا أفقتُ وجدتهُ مُستنقعا

سادَ الصمتُ بيننا لحظاتٍ خرقتها بقولكَ: هذهِ آخر قصيدةٍ كتبتُها. أردتَ بذلك أن توصلَ لي رسالة غير مباشرة بأنها لم تُكتب لي، ولكن ما الفائدة من تبريرك هذا إذا كنتَ ألقيتها لي في أول لقاءٍ لنا بعد فراقٍ طويل، لقد ألقيتها لتقول لي بطريقة غير مباشرة: هذهِ القصيدة لكِ ولو أنها كُتبت في امرأةٍ غيرك.
في محاولة لكسر الجمود قلتُ لك بابتسامةٍ عريضة– كنتَ وعدتني بديوانٍ كاملٍ يا نذل
ضحكتَ وقلت– كنتِ وعدتِني بك!
– كن أحسنَ منّي وأوفي بوعدك
– سأفعل

تحدثنا كثيراً، وضحكنا كثيراً وتبادلنا الغزلَ والأشواقَ بأعيننا كثيراً دونَ تصريح، أعرفُ أنّكَ تُحبني بأخطائي، تُحبني وأنا خائنة، وإلا لما قبلتَ لقائي أصلاً، قلتَ لي– لنعُد إلى الكورنيش.. فعدنا، عندما أوقفتُ السيارةَ في المكان الذي أخذتكَ منه قلتَ لي– تستطيعين الذهاب الآن، أنا سأبقى هنا

قلت– هل نستطيع المشي سويةً لبضع دقائق؟

أشرتَ بعينيك ألا مانع، ومشينا أمام البحر تكادُ أصابعُنا تقفز من أيدينا لتتعانق ونحنُ نقبضها إلينا بقوة، لمرتينِ أو ثلاث جعلتُ يدي تلمس يدكَ كأنني لم أنتبه، لم تُبدِ أنتَ أيّ ردة فعل لذلك، حتّى شارفتُ على الذهاب، وقفنا صامتين قرابة أربع أو خمس دقائق، وجوهنا للبحر والقمرُ مكتملٌ في السماء و منعكسٌ على الماء، شيءٌ من طبعِ البحر تسرّبَ إلينا، شيءٌ من السحر الذي يحملهُ المكانُ هنا تسللَ إلى أيدينا فلم تُقاوم أصابعنا اقترابها كما كانت قلوبنا تقاوم، تسللت يدي إلى يدك واشتبكت الأصابع، أحسستُ عندها يا حبيبي أنّ دمي كلّه استقر في يدي، دقيقتين اثنتين والتفتنا عائدينِ إلى السيارة وأصابعنا مستمرةٌ بالعناقِ على أعينِ الخلق، لا أتذكرُ كم خطوةٍ مشينا عندما رأينا وسام يجلس على أحد الكراسي الممتدة على الكورنيش ويضعُ يدهُ بطريقة تشي بحب على كتف امرأةٍ لا أعرفها، ورآنا نمشي وأصابعنا مُشتبكةٌ بعضها ببعض مشية عاشقَينِ قديمين!.

•••••

قلتَ لي مرّةً من المرات ونحنُ نجلسُ في الخراب قبيلَ شروقِ الشمس: لو لم يكن لهذا الشارعِ حسنةً إلا أنّه يُتيحُ لقاءنا لكفته، كنتَ سعيداً بي جداً، وكنتُ أقرأُ في عينيكَ حبّي الكبير، وأقرأُ شعركَ أيضاً.

تابعت– أنتِ يا غيداءُ جزءٌ لا يتجزّءُ من حِمص، فيكِ بعضُ غرورها، وفيكِ رائحتها التي تحتّلُّ كلّ من يعبرها، لقد أخذتِ من حِمصَ الهدوء والصخب، القسوة والحنان، الرقّة والغِلظة، أنتِ وطنٌ من التناقضات التي تملأُ الشِعر والشُعراء.

–ابتسمتُ وقلت لك– ثمّ ماذا؟

أشعلتَ سيجارةً وقلت– ثمّ إنّكِ لستِ لي.

كنتَ ماهراً جداً في تعكير صفو اللقاءات بيننا ولا يكلفك ذلك أكثر من كلمة! سكتُّ في اشارة منّي على استيائي مما قلت.

أخذتَ رشفةً من قهوتك وأخرى من سيجارتك وقلت– قلبي يقول لي هذا، قلبي يقول لي أنكِ لن تكوني لي، حاسبيه هو لا أنا.

– يا شاكر يا حبيبي، ما كلّ ما يقوله القلبُ يُصدّق.

لمَ هذي الافتراضات؟، أنتَ تقعُ في الاهمال كثيراً ومع ذلك ما قلت لك يوماً مثل قولك هذا.

دعينا من هذا– قلتها وأنت تنفث دخانك في الهواء.

فتحتُ جوّالي بأغنيةَ فيروز: حبيتك تنسيت النوم.

لطالما كان قلبكَ صادقاً في أحاسيسه معك، من أينَ لي بقلبٍ يصدقُ معي؟، هل تختلفُ قلوبُ الشعراء عمّن سواهم؟ قُلتَ لي لمّا سألتُكَ هذا السؤال ذات مساء: قلوبُ البشر من لحمٍ ودم أمّا الشعراء فقلوبهم من مطر، صدقت، فليس في الكون شيءٌ أرقّ وأعذب وأصفى وأنقى من المطر، والمطر لا يكذبُ لأنّهُ يسكنُ السماء، والصدقُ كلّ الصدقِ في السماء، أُحبّكَ جداً فقط لأنّكَ أنت، كم قلتها لك وكم كانت اجابتك– أُحبّكِ لأنّكِ أنا، ها قد سافرتَ من الإمارات على عجلٍ وتركتَ وراءكَ ما لا يُترك، ما لا يُنسى، وأخذت معكَ قلبي وفكري وروحي، فشكراً لأنّكَ أتحتَ لي لقاءكَ، وشكراً لأنّكَ ألقيتَ لي بعضاً من شِعرك، وشكراً لأنّكَ أنت لم تتغير، برغم ما كنتُ أظنّهُ فيكَ من الكِبر بدايةَ شُهرتك، أنتَ رجُلُ الماء وأنا امرأةٌ عطشى فلا تبخل، أتذكر؟ أتذكر تلكَ الليلة التي التقينا بها والتي كادت تودي بي إلى هاويةٍ لا نهاية لها، ولكن سترُ ربّكَ أولاً وآخراً ثمّ الحظ الذي ليسَ من عادته أن يُكمل معروفه مع أصحابه، أكملهُ معي هذه المرة! كم كان ذلك الرجل يُشبهُ وسام، لأول مرةٍ بحياتي أجد شخصاً يُشبهُ شخصاً بهذا القدر، أخذتَ تُهدّؤني بعدما تأكدنا أنه لم يكن زوجي وبعدما كدتُ أسقط من الخوف، ركبت معي في السيارة حتّى اطمئنّ قلبكَ عليّ وسكنت جوارحي المُرتجفة، قلتَ لي وأنتَ تُغادرني بدهشة عظيمة وقد علمت أنّ وسام هو زوجي: أخلصي لزوجك ولا تتذكري هذا اللقاء أو تفكري به أو بإعادته مرةً أخرى، ثم أغلقتَ باب السيارة ومضيت.

الفصل السابع

"حينَ اشتعلنا.. أمطرت"

هل كانَ يُدرك وهو يبكي على حافة القبر
أيّ ثمنٍ باهظٍ يدفعهُ الإنسان
حتى تتضح لهُ حقيقة نفسه وحقيقة الأشياء؟

– الطيب صالح/ مريود

أعزائي المسافرين النداء الأخير لرحلة رقم ١٢١٥ والمتجهة من مطار أبو ظبي الدولي إلى مطار دمشق الدولي، يرجى من السادة المسافرين سرعة التوجه إلى البوابة رقم ٢٣.

يقف شاكر في الصف البشري الهائل أمام البوابة ٢٣ وهو يلهو بجوّاله، طائرةٌ كبيرة ومقاعدُ ضيّقة، أفٍّ لهذا المرض، قال في نفسه وهو يعبر الممر داخل الطائرة إلى مقعده.

F٢٧ هو مقعده الذي يلتصق بمقعد فتاةٍ لا تراها عينٌ إلا هامت بها، ابتسمَ قلبه ولم تتحرك ملامحه، يُتقنُ كثيراً دور الانسان الهادئ الرزين.

مرحباً– قالها وهو يجلس إلى جانبها دون أن ينظر إليها.

أهلاً– وهي تنظر إليه نظرةً لا تتجاوز مُدّة ردها.

كلُّ حرفٍ زَلَّ عن مرشَفها
نَثَر الطيبَ يميناً وشمالا!

باغتهُ بيتُ أبي ريشة هذا لمّا سمعَ ردّها المُقتضب، وهذا البيت أيضاً قالهُ أبو ريشة لامرأةٍ جلست إلى جانبهِ في الطائرة، هذهِ الجميلة لابد وأنّها أحقُّ بهذا البيت من تلك. قال في نفسه.

يلتفتُ إليها بابتسامةٍ خجول: اسمي شاكر عربي.

لا تتحدثُ مع الغرباء، ولكنَّ ملامحهُ المألوفة جعلتها تردّ: تشرفنا.

–زادكِ اللهُ شرفاً، ما اسمكِ؟

ابتسمت ولم تُجب.

شعرَ أنّه وقع في دور الأبله بعض الشيء، لكنّه تجاهل الموقف وأرجع رأسه للوراء وأغمض عينيه استعداداً للإقلاع.

ما المانع إذا أخبرته باسمي؟، قالت في نفسها قبل أن تلفت إليه وهو مغمض العينين: مرام، ابتسمَ ولم يفتح عينيه ولم يقل شيئاً، حتّى المجاملة الشهيرة:عاشت الأسامي لم يقلها.

أقلعت الطائرة، وما ان ارتفعت عن المدرج وشعر بالطيران حتّى التفت إليها: اسمٌ عاديّ لفتاةٍ ليست عادية، تُريدُ التجاهلَ وإنهاء هذا الحوار لكن عليها أن تُجيب.

أسماؤنا يختارها أباؤنا وأُمّهاتنا فمنها الجميل ومنها القبيح، أمّا صورنا فالله يخلقها، وكلّ شيءٍ من الله جميل.

–صحيح، صدقتِ..

ثمّ يتنحنح: هل تعرفينَ قصيدة عمر أبوريشة "في الطائرة"؟ وهو يبتسم.

دونَ أن تلفت إليه: أحفظُها.

–تُحبينَ الشِعر؟

–ومن لا يُحبُّ الشعر؟.

–أنا.

تتسعُ عيناها دهشةً.

مُبتسماً– أنا أعشقهُ وأكتبه.

–وتكتُبه؟.

–وأكتبه نعم، ولي ديوان مطبوع وآخر تحت الطباعة.

–جميل، موفّق.

–هل أُسمعكِ شيئاً من شعري؟.

–لا: وهي تهزّ رأسها.

بينما كانت صاعقةٌ تضربُ رأسهُ، أكملت مُبتسمةً: تتردد.
تأخر بالبحث عن قصيدة ما في جواله في محاولة منه لاستعادة أعصابه، ثمّ بدأ:

كما توقّعتُ.. أحرقتِ المكاتيبا
وكانَ حبّكِ أشعاري أكاذيبا

أحسنتُ ظنِّيَ لكن كُنتِ كاذبةً
فعلتِ فيَّ وفي قلبي الأعاجيبا

ماذا استفدتِ؟، سؤالٌ ليسَ يتركني
تلكَ الحكاياتُ هل كانت ألاعيبا؟

لمّا شَعرتِ بأنّي مُتعَبٌ ضَجِرٌ
من قصّةِ الحبِّ.. غيّرتِ الأساليبا

وفجأةً صرتِ بعدَ الطهرِ ساقطةً
مثل العفافِ إذا ألقى الجلابيبا

الحبّ في النتِّ وهمٌ.. كله كذبٌ
متى مللناهُ.. أغلقنا الحواسيبا

كتبتُ كلَّ مكاتيبي بلا أملٍ
كما توقّعتُ.. أحرقتِ المكاتيبا

كانت ملامحها تتغيرُ من بيتٍ إلى آخر تعبيراً عن إعجابها بما تسمع، الله ما أجملها، وهي تبتسم.
– شكراً شكراً، شكراً جزيلاً.

تحتاجُ هذه الجميلة لنظراتِ تأملٍ طويلة، والرحلة قصيرة أكثر مما ينبغي! يتحدثان طوال الرحلة والقلوبُ تنسجُ الحبال مُحاولةً إيقاعهم في الفخّ الذي لا ينجو منه بشر.

الاستعداد للهبوط، لن يدعها تُفلت منه، وهي أيضاً ستتفاعل مع أي شيء منه، لقد دقّ قلبها دقّةً لشاعرٍ لا تعرفه، وقفت الطائرة، سارا معاً حتّى نزلا منها، وقبل أن يفترقا قال لها: هذا كرتي الشخصي، وفيه حساباتي الشعرية الالكترونية ورقمي الخاص، أسعد جداً بالتواصل معك.

–ابتسمت: سأفعل، وافترقا.

ما أطيبَ اللُقيا بلا ميعادِ!

قالها في نفسه وهي تنصرفُ عنه، ثمّ مضى.

ينتظرهُ أمير، ولكن ما هذهِ المفاجأة!، كانت أمينة برفقته، ما الذي جمع أمير بأمينة!؟ عانقهُ مُندهشاً، وسلّم على أمينة بابتسامةٍ ملؤها العجب، وخرجوا.

●●●●●

حصلَ في سفره شيءٌ مما توقع وأشياءَ مما لم يتوقع، إنها الآن زوجة لوسام، الرجل الذي استضافه ببيته وأكرمه، الخلوق الطيّب، ما هذا الحظّ؟ ثمّ هل باستطاعتهِ اختراق حياة رجل آخر والحديث مع زوجته لو لم يكن وسام؟، هو لا يستطيع هذا أبداً كائناً زوجها من كان، صحيح أنّه بعد لقائه فيها استمرّ بالحديث معها من خلال الواتساب وبعض الاتصالات القليلة، وكانت معه كذلك خطوةً بخطوة حتّى سافر، لكنّه بمجرّد وصوله إلى حمص قرّر الابتعاد نهائياً. وهيهاتَ هيهات، لا هو الذي أعانه قلبهُ ليبتعد ولا هي تركته يتنفس بعيداً عنها، صار اهتمامها فيه مضاعفاً، وصارت تخترع القصص والمناسبات كلّما شعرت بأنه يريد الابتعاد حتّى تبقيه معها.

وضعَ فنجانَ القهوةِ بعد منتصف الليل وجلس قالت له نفسه وهو يصبّ القهوة: إنّ هذا الحبّ لا تُجدي معهُ أنصافُ الحلول، عليكَ أن تتوقف فوراً، إنّكَ تبصقُ في الصحن الذي أكلتَ فيه، إنّكَ تخون الرجلَ الذي دعاكَ واحتفى فيك واعتبركَ أخاً له، كان قد مرّ على عودته شهرٌ كامل، ومازلا يتحدثان يومياً، ولكنّه في كلّ يوم من هذا الشهر حدثته نفسهُ بما حدثته به وهو يصبّ قهوته قبل قليل، وضعَ أم كلثوم عبرَ جواله وأخذ يرتشفُ قهوته وسرح، أم كلثومُ بأعلى صوتها:

وكنتُ إذا سألتُ القلبَ يوماً
تولى الدمعُ عن قلبي الجوابا

يمسحُ دمعةً سقطت ويجففُ أخرى لم تسقط بعد، أيُّ امرأةٍ أنتِ؟، ولماذا عُدتِ الآنَ يا امرأةً أهدت إليّ الماء والنار معاً، تُشعلني، تُطفؤني، تكسرني نصفينِ كالهلال، آه يا نزار آه!

جاءَ اتصالهُا الذي لم يتوقع، في تمام الواحدة صباحاً، أينَ زوجها؟ فتح الخط: أهلاً غيداء

–أهلاً حبيبي

–غريبٌ اتصالكِ، أينَ وسام؟

–نائم، ولكنني اشتقت إليك فاتصلت

–أغلقي فوراً لا أُريده أن يشعر بك

–لا عليك، نومه عميق

تحدثا قرابة النصف ساعة، كانَ جريئاً عندما أخبرها أنه لن يستطيع الاستمرار، وأنها يجب أن تُخلص لزوجها، وأنّ ضميرهُ يُعذّبه، وأنه ألدّ أعداء الخيانة فكيفَ يقعُ بها ويعيشها؟ شعرت هي بشيء من الخوف، بشيءٍ الحسرة فأسرَّتها في نفسها ولم تُبدها له، وقالت: ما المانع من حديثنا إذ ليس ثمّة أيّ خطأ؟

كان ردّه قاسياً جداً عندما أجابها: لا ديننَا ولا أعرافنا ولا قلوبنا تقبل هذا، كانَ باستطاعتكِ أن تكوني لي، لكنّكِ اخترته هوَ، وأنا سوف

أضع حدّاً لهذه المهزلة، هدّأته قليلاً وقالت لا عليك سنتحدث بهذا لاحقاً ولن يحصل إلا ما تريده أنت وما تراهُ مُناسباً.

برغمِ هذا كانَ يشعر بالغيرة من وسام، إنّه يحبّها جداً، ويضعف كثيراً أمام هذا الحبّ، بعدما أغلقت الخطّ تملّكه هاجس نومها قرب وسام في سريرٍ واحد، وهنا كانَ لابدّ للشعر أن يتدخل فوراً، أمسكَ ورقتهُ وكتب:

أُحبُّكِ حينَ أنتِ لهُ
ولي سَهري وأشواقي
وحيداً..
تسقطُ الدمعاتُ
من قلبي وأحداقي
أُفكّرُ كيفَ أنتِ الآنَ
نائمةٌ على صدرهْ؟
وكيفَ يداكِ تنتقلانِ
من خصري إلى خصرهْ!
أُفكرُ كيفَ تبتسمينَ
تعتَبرينَهُ الدنيا
وترتجفينَ من عِطرهْ
كأنّكِ ما سُقيتِ الحُبَّ
قبلَ اليومِ من غَيرهْ!

في صبيحة اليوم التالي، التقى بأمير في الخراب، جلسا تتوسطهما القهوة، كانَ أمير ودون أن يشعر يُعيدُ كلامَ قلب شاكر على شاكر، قال له: دعها يا صديقي، ففي الحب لا تُجدي أنصاف الحلول.

أجابَ شاكر وهو ينفخ دخانَ سيجارته: أُحبّها وأكرهُ الاستمرارَ بالحديث معها وخيانة زوجها، ثمّ إنّها خانتنا معاً.

ابتسم أمير: فلتُنهِ هذه المهزلة بأسرع وقت، لا تتردد أبداً وإذا رحلتَ فلا تدع وراءكَ أثراً.

يهزّ رأسهُ سأفعل..

مرّت عشرة أيّام عقبَ ذلكَ الاتصال الصريح وما زالا معاً، يتحدثان يومياً، وضميرُ شاكر يزيدُ لهيبهُ يوماً بعد يوم، حتّى فتح جوّاله وكتب لها عبر الواتساب:

الآنَ صارَ بوسعنا أن نفترقْ!

فلقد خسرنا كلَّ شيءٍ..

كلَّ شيءٍ..

وانتهى عهدُ الرَتابةِ

والغرامِ المُتسقْ

• قرأت رسالتهُ وفي قلبها غصّة، لكنها أجابته قائلةً:

لا يا حبيبي لا تَقُل هذا الكلامْ
لا..
لا تقف في صفِّ أوجاعي عليّ
رغمَ الحروبِ معَ الأسى
يوماً سينتصرُ السلامْ

• قرأ ردّها أكثر من مرة، ثمّ ردّ عليها:

لابدّ أن نَضعَ النِقاطَ على الحروفْ
ونُعيدَ ترتيبَ الصفوفْ..
فأنا وأنتِ نعيشُ عشوائيةً ليستْ تُطاقْ
وعلى الذي يخشى المرورَ أمامَ خَيبتهِ.. الوقوفْ
الآنَ صارَ بوسعنا أن نملأ الدنيا فِراقْ!
ونُسلّمَ الحُبَّ الكبيرَ إلى الظروفْ!

•ردّت ودمعتها في عينها:

أتظنُّ أنَّ البُعدَ فيهِ سنَستريحْ؟
البُعدُ مُعتقلٌ كبيرٌ..
ليسَ فيهِ سوى القتيل أو الجريحْ
كن أنتَ ندّاً للخِصامْ
النفسُ إنْ هيَ للظروفِ استسلمتْ
لا تستحقُّ الإحترامْ!

• سقطت دمعةٌ من عينه.. قال بعدها:

إنّي أُحبّكِ، أغلقي الموضوعا
واستوعبي إحساسيَ الموجوعا
أنا ضائعٌ وتَسكّرتْ..
في وجهيَ الدنيا وكم هيَ غَرَّرتْ
أعطتنيَ الحُبَّ الكبيرَ وأنكرَتْ
من لُؤمِها..
حينَ اشتعلنا..أمطَرتْ!

في شارع الخراب، وفي ذلك اليوم الذي التقت فيه غيداء بشاكر وأخذت رقمه، وقعتْ عينُ أمينة بعين أمير، وعندما تقع الأعينُ في النَظرات تسقطُ القلوبُ في الحب، حمص صغيرة كما يقول أهلها مع أنّها مُصنفة كأكبر محافظة في سوريا مع ريفها، أمّا المدينة فهي صغيرة فعلاً، ولذلك كانت فرصة أن يلتقي أمير بأمينة أكثر من مرة بفترات قريبة وأن يتبادلا عبارات السلام فرصة سهلة جداً، بعد أكثر من صُدفة بينهما تجرّأ يوماً عندما التقاها صدفةً أيضاً عند بائع العصيرات في الغوطة وقال لها: يسرّني لو قبلتِ دعوتي على العشاء.

بابتسامةٍ ملؤها الحياء– أعتذر، لا أستطيع.

–أعلم ولكنني طلبتُ الأصعب حتّى آخُذَ الأسهل.

باستغراب–ما هو الأسهل؟

يتنحنح وبتلفت يمنةً ويسرة– رقمك!، أرغب في الحديث معك، ويبتسم.

كانَ هذا يومَ سفر شاكر الأخير للأمارات، أسابيعٌ فقط تقدّم خلالها أمير وطلبها للزواج وعُقدَ قرانُهما.

يا لكَ من نذل!، أأكونُ آخر من يعلم– قالها شاكر لأمير بعدما أنزلا أمينة في بيتها وقد أحضروه من المطار.

أمير مُبتسماً– والله صارت الأمور خلافاً للمتوقع، صدقني أنا نفسي حتّى اللحظة أشعر أنّهُ حُلم.

لقد فرحَ شاكر بأمير وأمينة فرحاً لا يعدلهُ فرح آخر، إنّ سعادةَ أمير من سعادته، لكنّهُ سرحَ بعيداً، فمن ينظرُ إلى القصة من الأعلى يعلم أنّ كلّ شيء يشي بارتباط شاكر بغيداء، لكنّها عادة القدر بمخالفة توقعاتنا، افترق شاكر وغيداء،،وارتبط أمير بأمينة!

•••••

كما تَنبُذُ العائلةُ الجاهلة ابنها المُتعلّم وتُعيّرهُ بعلمهِ كلّما خالف رأيها أو عاداتها وتقاليدها، نبذتني عاطفتي! إنّني أعلمُ جيداً أنّ الهلاك ينتظرني في نهاية هذا الطريق، ولذلك قررتُ الرحيل، فلماذا تنبذني عاطفتي الجاهلة بما ستؤولُ إليه قصةُ الحبِّ العقيمةِ هذه.

قالَ شاكر هذه الكلمات في نفسهِ وهو يتجهّز استعداداً للخروج إلى الخراب، مرَّ أسبوعٌ كاملٌ وهو لا يُجيبُ على اتصالاتها ورسائلها، أوّلُ الصبرِ أصعبُه، وها هو تجاوزَ مدّة الخطر أخيراً وقاومَ عواطفه أسبوعاً كاملاً مما سيعينه على الاستمرار بالقطيعة، أسبوعٌ وراءَهُ أسبوع وآخر، والشوقُ يأكلُ قلبه، والسهرُ يهُدُّ قواه، لم يكن بانتظار أيّ تصرّفٍ منها سوى الاتصال أو ارسال الرسائل.

وهو سارحٌ على كرسيّهِ في الخراب شعرَ بجسدٍ ما يجلس جانبه، التفتَ ليرى ابتسامتها الصامتة!، بدهشةٍ تفضحُ وجهه: غيداء؟

تَهزُّ رأسها مُبتسمةً، ثمّ تنصرف بوجهها إلى الطريق أمامها وتقول: طلبتُ الطلاق.

–ماذا!!، قالها كالذي فقد عقله.

ضربتانِ على الرأس في أقل من دقيقة، مفاجأةُ قدومها إلى حمص وطلبها الطلاق من وسام.

تُتابع النظر إلى الطريق وبكلّ هدوء: أُريدكَ أنتَ لا أحدٌ سواكا، ثمّ تلتفت إليه: فقبرٌ هذهِ الدنيا سِواكا.

يا الله، يا الله، والدهشة والغضب تملآنِ وجهه: أغبيّةٌ أنتِ؟، كيفَ تطلبين الطلاق بكلّ سهولة؟، أتظنين أنني سأتزوجكِ إذا فعلتِ؟.

لا أريدك أن تتزوجني، قالتها والدمعةُ في عينها.

يا الله اغفر لي، يا الله اغفر لي، أيّ بلاءٍ هذا الذي وقعنا به، ثمّ يلتفت إليها: وهل طلقك؟

رفضَ طبعاً واستغربَ طلبي جداً وطلبَ منّي أن أنزل إلى حمص كيّ تتحسن نفسيّتي التي تغيرت كثيراً في الفترة الأخيرة بحسب قوله.

تنهّدَ تنهيدةً طويلة: جنونكِ هذا ما آخره؟

تصرخ بأعلى صوتها–لا تتركني لا تتركني، أنا أُريدكَ أنت، وتبدأ بالبكاء.

تختلطُ المشاعر في قلبه، والناسُ تنظرُ إليهما، يُلملم الموقف ويركبان السيارة.

بكلّ ما فيها من لؤمٍ وقسوة، تكونُ المسافاتُ وجهاً من أوجه الرحمة أحياناً، ولذلك كانَ انسحابهُ من العلاقة وهي بعيدة عنه سهل، فماذا يفعل الآن وهي بقربه، ويستطيع لقاءها يومياً، لايزال وسام يتواصل معه بشكل شبه يومي، كم رسالة واتساب وصلته منه وغيداء تجلس إلى جانبه، إنّه خنجرٌ في القلب لا يعرفُ لؤمهُ إلا من تذّوقه، لقد تركتهُ من أجل وسام ذات يوم، وها هي تترك وسام من أجله هو، ماذا تُريدُ هذه المرأة ولماذا تلعبُ بقلبينا معاً، قالها وأسرّها في نفسه عدة مرات.

عندما تجد نفسك ثانيَ اثنين في الحبِّ، ابتعد: مطلعٌ لمقالٍ جديد سيُنشرُ غداً في مجلة "صدى الشعر" جاء في آخره : كلّ التبريرات التي تُقدمها امرأةٌ تخون زوجها لعشيقها هي تبريراتٌ تحتاجُ لتبريرات، والذين جرّبوا هذا النوع من العلاقات مع نساءٍ متزوجات هم في الحقيقة لا يعيشون علاقات حب إنما علاقات من الخيانة المستترة باسم الحب، فلا شيء في هذه الأرض يقبل أن تخون امرأةٌ زوجها تحت أي سبب أو أي ظرف، إنّ التي خانت زوجها لأجلك ستخونك لأجل رجلٍ آخرٍ أنتَ لا تعرفه، وإنّ امرأةً خانت زوجها بالحديث مع رجلٍ آخر مرة ستخونه ألف مرّة بألف حديث، فهذا دربٌ لا خلاص منه إلا ما شاء ربّك، إنّ علاقة الرجل بامرأةٍ متزوجة أو علاقة امرأة برجل متزوج علاقة معاقة، لا مستقبل يستحق المغامرة ولا ماضي يستحق الذكرى لذلك أعودُ لما بدأتُ به: عندما تجد نفسك ثانيَ اثنين في الحبِّ، ابتعد.

بما أنّها عادت إلى حِمص فلا بدّ أن يغادرها هو، لكن إلى أين؟، لا يهّم المكان كثيراً، المهم أن يكونَ مكاناً خالياً منها، ركب سيارته بعد صلاة الصبح وانطلق إلى شاطئ النورس في طرطوس، إلى الشاليه الذي تملكه عائلة أمير ليقضي فيهِ وقتاً مجهولاً، بعيداً عن أعينها وضجيج المدينة، كان البحرُ وجهته، وكما يحصلُ دائماً، أخبر أمير بعد أسبوعٍ تقريباً خطيبته أمينة بمكان شاكر وهي بدورها أخلفت وعدها لخطيبها بعدم اخبار غيداء بمكانه وأخبرتها.

إنها فرصةٌ من ذهب، قالت غيداء لأمينة التي تُحلفها بالله أن لا تخبر شاكر بأن لها يد في معرفة مكانه.
أخبرتها قُبيلَ الفجر، وبعدهُ مُباشرةً كان السائق بانتظار غيداء التي أعدّت نفسها لغياب أسبوعٍ على الأقل برفقة شاكر، وانطلقت.

القلبُ يريد، ولكن ما الفائدة إذا كان القدرُ لا يسمح؟، قالتها في نفسها وهي في طريقها إليه، لكنّها أُنثى وقلّما تقطعُ الأنثى أملها من الحُبّ، وإذا قطعته فاعلم أنهُ لم يكن حُبّاً.
في هذا كانَ شاكر مسافراً في خياله إلى التاريخ، بعدما كتب ومزّق، وكتبَ ومزّق، كانت قصيدته الصغيرة "مهد الحضارات" خلاصة أسبوعٍ من الوجود والشتات والحضور والغياب، والكثير الكثير من العزلة.

حضارةٌ بعدَها أُخرى.. وما اندثرا
فمن يلومُ بكِ المجدَ الذي افتَخَرا؟

يا جنّةً من جِنانِ اللهِ.. أنزلَها
هل ظلَّ دينٌ على جنبيكِ ما عبرا؟

بكى هرقلُ عليها يومَ ودّعها
وماتَ خالدُ فيها بعدما انتصرا

يا أوّلَ الأرضِ أوطاناً وآخرهَا
يا ربّةَ العِلم والآدابِ والشُعرا

يا وجهَ يوسُفَ بسّاماً لاخوتهِ
برغم أنَّهُمُ باعوهُ وهْوَ يرَى

من عهدِ آدمَ كم آويتِ من أُممٍ
وكم حملتِ على أكتافكِ البشرا

إنّ الطريقَ إلى التاريخِ يأخُذنا
إليكِ أنتِ.. سواءً طالَ أو قَصُرا

أُمُّ الثقافاتِ فوقَ الجهلِ كم هَطلَت
أغصانُها الخُضرُ تُغري الغَيمَ والمطرا

كأنَّ آدمَ.. حينَ اشتاقَ جَنَّتهُ
قد أوتيَ الشامَ.. تعويضاً لما خسرا

الشامُ التي كتبَ لها وعنها الكثيرون، لابُدّ وأنّها ستخلدّ هذا السحر، وستجعل من البيت الأخير لهذه القصيدة قِبلةً لكلّ الأبيات الجميلة

التي كُتبت وستُكتب عن الشام، الكتابة عن الشام لا تشبه الكتابة عن أي بقعة في الأرض، لأنها قطعة من الجنة والكتابة عن الجنة تحتاجُ منك عاطفةً سماويّة، وقليلونَ جداً هُم الذينَ أنقذوا عواطفهم من شوائب الأرض وحلّقوا بها في السماء، ورغم صعوبة الكتابة في مزاجٍ سيء، إلا أنّهُ أنهى كذلك كتابة مقاله بعنوان "الحقيقة والخيال في الشعر" ليُنشر في احدى الصحف التي يكتب بها، وجاء في نهاية هذا المقال:

"أن يكتب الشاعر معتمداً على خيالهِ –كما يفعل –آلُ الحداثة– غالباً، سيُنجب لهُ خيالهُ نَظماً خالياً من الشِعر، أو في أحسن الأحوال قصيدةً معاقة، ولقد رأيتُ هذا في أغلب الحداثيّين، والذين يتحدث أحدهم في قصيدته عن غروب شمس تموز في "هايد بارك" وهو لم يسبق أن غادرَ خيمتة في الصحراء إلا إلى بيته الكائن في صحراء أخرى تُسمى زوراً "مدينة"، أو عن "مقهى الفوكيت في باريس" وهو لَمْ يزر إلا مقهى حارته، زواجُ الواقع بالخيال يُنجبُ القصيدة، وما عدا ذلك فإنّه مضيعةٌ للوقت مضجرةٌ للقلب ومفسدةٌ للشعر، وحرق لقلوب القرّاء وأذواقهم، إن انفصال الشاعر عن واقعه واسفافه بالخيال أو العكس لهو أحد أهم العوامل التي ساهمت في تراجع شعبية الشعر ونزوله عن عرش الأدب العربي لتصعد الرواية، ولكن بما إنني كتبتُ الشعر واختارني واخترته فلا تخافوا يا قوم، أنها لها، وسأعيدُ عرش الشعر للشعر عمّا قريبٍ بإذن الله، وستذكرونَ ما أقول لكم، وإيّاكم وشتمي في ظهر الغيب على تصريحي هذا فإني لن أسامحكم، هذا ما عندي والسلام."

المقال فن مختلف كثيراً عن الشعر، والنثر في الحقيقة هو فضيحة الشاعر الكبرى، فليس للشاعر في النثر السلطة التي في الشعر والجوازات التي لا تجوز لغيره، وكما أنَّ إتقان الإيجاز في الشعر هو الإبداع، فإنّ إتقان السرد في النثر هو الإبداع، ولكن الإيجاز أصعب من السرد بكثير، لذلك ينجح بعض الشعراء في النثر لأنهم يبحثون عن الحريّة والنَفَس الطويل في الكتابة بعدما حُبسوا في الإيجاز، ويفشل الكثير من الروائيين في كتابة الشعر لأنّ الذي تنفس حرّيةَ السرد لا يستطيع البقاء في سجن الإيجاز، خاض شاكر فنَّ المقال وهو مؤمن بهذا وخائفٌ منه في آنٍ معاً، وما كانَ النثرُ في حياته عن موعدةٍ وعد نفسهُ إيّاها، إنّما كان في البداية تحقيقاً لرغبة أحد أصدقائه ويعمل رئيس تحرير لإحدى المجلات، حتى تطور الأمر فيما بعد وأنشأ شاكر مجلة "أصدقاء الشعر".

يقول روبن ويليامز: كنت أظن أن أسوأ شيء في الحياة هو أن تكون وحيدًا، لكن أسوأ شيء في الحياة هو أن ينتهي بك الأمر مع أشخاص تشعر معهم بالوحدة.

ولذلك كانت العزلة هيَ الرفيق لشاكر، شاكر الذي تغير كثيراً ولم يعد مُستسلماً لقلبه كما كان دائماً، هو الشاعر الوحيد على وجه هذه الأرض الذي سلّمَ عقلهُ دُفّة الحب وسلّمَ العُزّلةَ دُفّة الحياة.

●●●●●

وهيَ في الطريق تقرأ حالته على الواتساب:

"حين تخرج من العاصفة، لن تعود الشخص نفسه الذي دخلها، ولهذا السبب وحدهُ كانت العاصفة."
موراكامي

هي تعلم أنّه يتفقدُ حالتها دائماً رغم أنّه أبدى لها في الكثير من اللقاءات السابقة أنّه لا يهتمّ بهذه الأمور، لذلك وضعت عبر حالتها: يمكنك بلوغ أي قمة من قمم الجبال طالما أنك مستمر بالتسلق.
هي لا تهتمّ كثيراً بحقوق الكُتّاب كما يفعل هو، تضع العبارات دائماً بدون الاشارة لأصحابها، قال لها مرّةً عن هذا: أنتِ تسرقين تجربةً كاملة مرّ بها الكاتب وعانى حتّى أتت عبارته التي وضعتِها.
مرّت فترة من الفترات صارت تُشير فيها إلى صاحب المقولة من باب التقليد لحبيبها ليس إلا.

متى أصلُ إليك؟ تُرددها طوال الطريق، وفي داخلها مشاعرٌ مختلطة، شوقٌ وحنين وعتابٌ وحزن، حالةٌ عاطفية لا تفسير لها، كأكثر الحالات العاطفية، قبل أسبوعٍ فقط قال لها أحبّك، وفي اليوم الذي يليه أرسل يقول:

نُحاولُ أن نظّلَ معاً
برغمِ ظروفنا السودا
وما بالحُبِّ قد أودى
فهل نقدرْ؟
أشكُّ بأننا نَقدرْ!
فلا ليَ أنتِ كي أصبرْ
ولا سأكونُ يوماً لكْ
وكم قتَل الهوى منّا بلا ذنبٍ
وكم أَهلَكْ
فهل نقدرْ؟
أشكُّ بأننا نَقدرْ..

تخبّطٌ عاطفيٌّ رهيب، يعيشانهِ معاً، فبعد كلّ كلمة "أُحبك" يقولها ، يأتي حديثه عن الفراق وضرورته، وعن ايقاف هذه المهزلة، وبعدَ كلّ كلمة "أُحبك" تقولها لهُ يأتي حديثها عن البقاء وضرورته رغم كلّ الظروف.
في البدايات –رغم جمالها– شيءٌ من وجع النهايات: هكذا قال لها في بدايتهما.

كان وبإحساس الشاعر منذ اللحظة الأولى يعلم أنّ هذا الحبّ لن يدوم، وقالها صراحةً في أكثر من لقاء بينهما، وكانت كلّ ما قال هذا لها غيّرت الموضوع ودعتهُ للتفاؤل.

متى أصلُ إليك؟، إنّ الوصولَ إليكَ هو في الحقيقة وصولٌ إليَّ أنا، فلا أجدُني إلا لديك، تقبّلني هذه المرّة، تقبّلني بأخطائي وزلّاتي، تقبّل حياتي التي لا تهدأُ إلا بينَ يديك، أُقسمُ لك أن لا شيء في هذه الأرض يُبعدني عنك فلا تُحاول، حتّى ولو كنتُ مع كل رجال الأرض فإنّ عيني لا يملؤها إلا ابتسامتك أنت.

يبعدُ الشاليه عن حمص قرابة الساعة والنصف، لكن لماذا يبدو الوقتُ أطول في هذه الرحلة؟، إنها تعدّ الثواني كي تصل إليه، ولم تصل بعد، سوف تحضنه بقوة، سوف تقول لهُ أنّه أنفاسها فكيف يحرمها حقها في الحياة؟، ستعاتبه، سيمشيان معا على رمل الشاطئ ليلاً ليخبرها أنّ ثمّة قمرين على وجه الماء، القمر ووجهها، ستسرقهُ من نفسه هذه المرة، ستأخذ منه عهداً بأن يبقى معها مهما كانت الظروف، ستسمعُ منه مُسامحتها على ما كان، ستفعل كل شيء كل شيء بعد أن تصل.. لكنّها بكلِّ أسف لم تصل ولن تصلَ يوماً!

كان الموتُ ينتظرها في منتصف الطريق المؤدي إلى حبيبها على هيئة حادث مرّوع، وكان الكابوس الطويل الذي رآه شاكر انقضى.

قامَ من نومه والخوفُ يأكلُ وجهه ليجد مكالمةً فائتة من غيداء، الصبية التي تعرّف عليها قبل يومين!.

تمّت

كوالالمبور/ نوفمبر ٢٠١٧

شكر وتقدير

لكلّ قصائدي التي قبلت أن تكون في عُهدةِ البطل لأجلي.
لكلّ الشخصيات التي لم تدع لي فرصةَ رسمها كما أُريد وفرضت عليّ رسمَ نفسها كما هي تُريد.
لكلّ ذكرى تربّعت في خاطري لتصبح حدَثاً في هذه الرواية.
لأُختي زهراء العرجي.. لا لشيء، فقط لأنها أجمل شيء في حياتي.